بيار روفائيل

الصدى البعيد



مكتبة المعارف
بيروت

الصدى البعيد

بيار روفايل

الصدى البعيد

مكتبة المعارف
بيروت

الطبعة الأولى
بيروت ١٩٧٥

للمؤلف :

– غداً يطل الربيع .
– القلب الأخضر .
– عندما تذوب الثلوج .
– الأرض العذراء .

مكتبة المعارف

شارع الأمير أمين
بيروت

يطلب من الناشر، شارع الأمير أمين ص ب ١٧٦١ – بيروت

الإهداء

إلى القلوب المعذبة على هذه الأرض !..

إلى تلك الأرواح المتعبة ، المتألمة ، التي تثقلها الأجساد وتحول بينها وبين الانطلاق إلى الفضاء الرحيب .

إلى العيون التي تحرقها الدموع .

إلى الشفاه التي تكويها الآهات ويثخنها الأنين بالجراح .

إلى النفوس المعذبة .

أهدي قصة الصدى البعيد .

بيار

١

في أواخر صيف عام ١٩٦٨ كنت في زيارة صديق عزيز في بلدة خضراء تجثم بأمان وراحة وسلام واطمئنان في سفح جبل شامخ من جبال الأرز .

كان ذلك الصديق قد دعاني لقضاء عطلة الأسبوع في داره الجميلة التي تحيط بها الأشجار الباسقة الخضراء .

وشخصتُ إلى تلك القرية صباح يوم الأحد وقضيت النهار في دار ذلك الصديق مع بعض الأصدقاء والأدباء والصحافيين .

وفي المساء ، عندما حاولت العودة إلى بيروت أبى ذلك الصديق عليّ العودة ودعاني لقضاء الليلة في داره .

وحاولت الاعتذار إلا أن صديقي وثب إليّ يقول :

– : لك عندي قصة رائعـــة . إذا وافقت على قضاء الليل عندنا ستظفر بقصة رائعة ، قصة ممتعة لم تسمع بمثلها .. وأغراني .

قلت : سأظل هنا إلى الغد . هات القصة .

فأمسك بيدي ليقول : تعال معي .

وسرت معه في طريق ضيق طويل في سفح جبل شاهق شامخ .

كانت أشجار السرو والسنديان والعفص والشربين تحيط بذلك الطريق ، ورائحة الزهور البرية والصعتر والصنوبر تعطر الأرجاء ، والطيور والعصافير تنتقل من غصن إلى غصن باحثة عن مأوى تلجأ إليه وتبيت فيه .

وكانت الشمس قد بدأت تتأهب للانحدار وراء الأفق البعيد وهي تخضب الفضاء بدمها الوردي الجميل .

والجبال والوديان والسفوح والتلال الخضراء تغرق في حضن السكينة والهدوء .

وكان ذلك المنظر رائعاً فاتناً جميلاً ، فالتفتُّ إلى صديقي قائلاً :

– : فلنتوقف برهة هنا لنمتع أنظارنا بهذه المناظر الفاتنة .

– : لا . يجب أن نصل إلى هناك قبل المغيب .

– : إلى أين تريد أن نصل قبل المغيب ؟

فأشار بيده إلى ربوة صغيرة تنزوي في سفح الجبل وقال :

– : إلى هناك .

– : لماذا ؟

– : مهلاً ستعلم كل شيء .

وسرنا ...

وقبل أن نصل إلى « هناك » بقليل دوى صوت شجيٌّ في آذاننا : « يا فؤاد ا.. »

وكان ذلك الصوت صوت امرأة ..

امرأة تنادي : « يافؤاد ا.. » بصوت عال قوي رهيب : يا فؤ...ا...د يا فؤ...ا...د

ويتعالى ذلك الصوت الرهيب الشجي المجنون في تلك الأجواء فتردد صداه البعيد الأودية والجبال والربى والتلال على رهبة وخشوع : « يا فؤ...اد ا.. »

ووجمت .

والتفتُّ إلى الصديق أسأله : ما هــذا ؟.. من هي هذه المرأة التي تطلق صوتها عبر هذه الجبال؟..ومن هو فؤاد هذا.

وأشار صديقي بيده إلى قصر فخم منيف يجثم بــأنفة

واعتداد فوق ربوة خضراء بين الأشجـــار الباسقة الخضراء ويشرف على الوادي السحيق ليقول : انها سيدة هذا القصر .

قلت : وفؤاد ؟.. من هو ؟

– : مهلاً ستعلم كل شيء . تعال معي .

وعدنا إلى المسير ..

واقتربنا من مصدر الصوت . وإذا بنا فجأة أمـام سيدة في أواخر العقد الرابع أو في مطلع العقد الخامس من العمر ما زال الجمال المشرف على الأفول يخط سطوراً في وجههـا الهادىء الرصين الجميل .

وكانت تلك المرأة تقف فوق صخرة عالية كبيرة تشرف على الوادي السحيق العميق القرار وتنظر إلى الأفق البعيد وتنادي بأعلى صوتها : يا فؤاد ..

ويعود الصوت إليها مع الصدى البعيد « يا فؤاد !.. »

كان لون المغيب الوردي ينسكب على تلك المرأة الجميلة ذوبه الجميل .

والنسيم يعبث بخصلات شعرها المسدل على كتفيها فتتطاير تلك الخصلات بين أيدي نسيم الغروب العليل .

وينزلق النسيم من شعرها الأسود الحريري الجميل إلى ثوبها الفضفاض فيتمارج ذلك الثوب مع تموجات النسيم ، وهي واقفة

فوق الصخرة تنظر إلى الأفق البعيد من خلال دموعهـا غير عابئة بالنسيم ولا بالغروب .

واقفة تبكي وتنادي : « يا فؤاد » ..

ثم تستمع إلى الصدى البعيد يرد إليها الكلمة « يا فؤاد » لحناً عذباً شجياً حنوناً .

وعدنا إلى الاقتراب منها .

وشاهدت الدموع تتدحرج على وجنتيها الجميلتين كحبات اللؤلؤ البيضاء .

وخيل إليّ أنها لم تنتبه إلى اقترابنا منها . فكأنها ليست من هذا العالم الفاني ، كأنها طيف أو خيال أو ملاك من العالم الثاني ، من عالم الأرواح .

وحاولت أن ألقي عليها التحية إلا أن صديقي شدّ يدي وهمس : لا تتكلم .

وهمستُ : لماذا ؟

– : لا تنطق بحرف . إصمت .

ونزلت عند طلبه ولم أنطق بحرف وصمتّ ..

ووقفت أراقب وجـه تلك المرأة الجميلة بدهشة ووجوم واستغراب .

ولم يطل وقوفي ولم يطل صمتي . فقد انحدرت تلك المرأة عن الصخرة العالية وسارت في الطريق الضيق الطويل المحفوف بالأشجار والزهور مقتربة منا ...

وشاهدتنا ، فطفَت على ثغرها ابتسامة صافية كصفاء ذلك الفضاء الجميل .

إلا أن الألم كان يمسح تلك الابتسامة بأصابعه المرتجفة الواهية عن شفتيها ، وكانت ، وهي تبتسم كأنها تبكي ..

وهمس صديقي ، وقد أصبحت على مقربة منا .

— : مساء الخير يا ست سلوى .

— : مساء الخير يا نعيم ، كيف حالك ؟

— : بخير والحمد لله .

ونظرتْ إليّ نظرة مبهمة غامضة لا معنى لها ولا شكل ولا لون . ثم حولت نظرها عني إلى صديقي ، وكأنها تسأله : « من هو ؟ »

وأجابها الصديق على سؤالها الصامت : إنه صديقي . جاء من بيروت لزيارتي فرُحت أطوف به هذه الربوع الجميلة .

ومدت إليّ يداً باردة وصافحتني وهمستْ : أهلاً وسهلاً .

والتفت الصديق إليّ ليقول :

— : إنني أقدم لك الست سلوى عبود .

— : تشرفنا .

وسارت باتجاه القصر ، أنا وصديقي ، قربها ، متسلقين السفح نحو الربوة العالية الخضراء حيث يجثم قصرها ، ورحنا نتحدث ...

ولاح لي أنها على ثقافة عالية . فهي متضلعة في الأدب وفي السياسة وفي الفن وفي الاقتصاد ، تجيد اللغة الفرنسية، وتتكلم الانكليزية وتتقن أصول وقواعد اللغة العربية .

وراحت تحدثني شتى الأحاديث الأدبية والسياسية وقد علمتْ من أنا .

وشعرت بأنني مرتاح كل الارتياح إلى حديثها اللطيف ، وخيِّل إليّ أنها مرتاحة أيضاً إلى حديثي ..

تحدثنا ونحن نتسلق السفح إلى القصر أحاديث السياسة فأبدت رأيها بالسياسة وكان رأيها الرأي الصائب القويم .

وتحدثنا أحاديث الأدب ، فأبدت رأيها بالأدب العربي بوجه عام ، وفي لبنان بوجه خاص ، وإذا بذلك الرأي لا يختلف عن آراء كبار الأدباء المتضلعين ..

ووصلنا بعد مسير قصير إلى القصر، والتفت صديقي إليها ليقول : إلى اللقاء .

وهمست : لا .. لن أسمح لكما بالانصراف، ستدخلان معي إلى القصر وتتناول القهوة معاً .

وكنت في قرارة نفسي أتمنى أن يستجيب صديقي دعوتها، إلا أن الصديق حاول الاعتذار عن تلبية الدعوة السمحاء قال : لا .. شكراً يا ست سلوى .

قالت بلهجة آمرة : تفضلا بالدخول معي .

ورمقت الصديق بنظرة سريعة فهم معناها . كانت نظرتي تلك تلح عليه بقبول الدعوة فهمس : كما تريدين .

وتنفستُ الصعداء . الحمد لله . لم يخيب الصديق الأمل .

ودخلت أمامنا إلى حديقة القصر الغناء ودخلنا في أثرها .

وقادتنا إلى القصر وسط الأشجار المثمرة والزهور والورود المنتشرة في الحديقة .

وتسلقنا سلالم رخامية قليلة ناصعة البياض لنصل إلى باب القصر الكبير .

ووقفت أمام الباب تضغط على الزر الكهربائي .

وفتح الباب وأطلت منه الخادمة . إنها امرأة في زهاء الأربعين من العمر ، يدل مظهرها وتدل لهجتها على أنها قروية .

وهمست الخادمة وهي ترمقنا بنظرة طويلة : أهلاً وسهلاً .

والتفتت سيدة القصر إليها لتقول : أسرعي بتهيئة القهوة يا نجيبة .

قالت سلوى هذا وسارت أمامنا في ممر طويل إلى قاعة الاستقبال .

ورحت ، وأنا أسير في ذلك الممر أستعرض الرسوم الزيتية الرائعة المشنوقة في الجدران ، والتماثيل البرونزية والرخامية الجاثمة في الزوايا ، والتحف النادرة الثمينة التي تزين ذلك القصر .

كل ما في القصر الشاهق المنيف كان رائعاً فاتناً جميلاً ، يدل على غنى وثراء القاطنين فيه .

ودخلنا وراء سلوى إلى قاعة الاستقبال .

إنها قاعة فسيحة الأرجاء مزينة بالرسوم الزيتية الرائعة وبالرياش والطنافس والمقاعد النادرة ، وبالسجاجيد الغالية الثمن .

ورحبت سلوى بنا شديد الترحيب . ودعتنا للجلوس ، فجلستُ على مقعد رجراج وثير .

وجلست سيدة القصر قربي .

وجلس صديقي على مقعد قريب من مقعدينا .

وعدنا إلى الأحاديث نتجاذب أطرافها .

ولم تلبث أن أقبلت الخادمة حاملة لنا القهوة .

وقفت سلوى لتتناول فنجاني القهوة عن الصينية وتقدمها لنا ثم تناولت فنجانها وعادت إلى مقعدها تجلس عليه قربي وتنصرف إلى رشف القهوة .

وكانت سلوى تتحدث إلينا برقة ولطف ، كان في صوتها نغم هادىء صاف شجي .

وكان في نظراتها حنين بعيد سحيق عميق ، ينم عما في روحها من حزن وألم وأسى .

وأيقنت أن في صدرها سراً رهيباً .

وحاولت أن أثب إلى أعماق ذلك الصدر لأقف على سرها.

حاولت أن استدرجها للبوح بذلك السر ، إلا أنني عجزت ، فقد كانت تلك المرأة الجميلة تفرض الاحترام على جلاسها .

وشعرت بأن سلوى قريبة مني . فهي لطيفة إلى أبعد حدود اللطف ، وذكية إلى أعمق حدود الذكاء ، ومثقفة إلى أرحب حدود الثقافة .

وكانت تحدثنا في جميع المواضيع بكل بساطة وبكل ارتياح .

حدثتنا عن المعيشة في الجبال : « الحياة جميلة وسعيدة هنا . إن الإنسان الذي يعيش في حضن الطبيعة بين الأشجار

والوديان والصخور والوهاد والتلال يشعر بأنه قريب من الله . والقريب من الله ، عز وجل يشعر بسعادة ما بعدها سعادة » .

وحدثتنا عن الفن – : « هذا الرسم المعلق في الحائط عمره زهاء مئة سنة ، رسمته المرحومة جدتي، كانت المرحومة أمي تقول لي ان المرحومة جدتي كانت تجيد الرسم وهي في الخامسة عشرة من عمرها . . هذه الصورة تثبت لنا أن المرأة اللبنانية كانت منذ القديم تسلك طريق المعرفة والعلم. وأخطأ من اتهم جداتنا بالجهل . لا ، لم تكن جداتنا جاهلات إلا أنهن كن رصينات ، كن متحفظات ، تقيات ، ورعات. ومن يدري فقد يطل علينا يوم نرى أنفسنا فيه مضطرات إلى سلوك السبيل الذي تسلكه جداتنا . . »

وحدثتنا عن الأدب العربي – : « إن الأدب العربي لم يعد أدباً عربياً صرفاً . إنه اليوم مزيج من الأدب العربي ومن الأدب الغربي وسيصبح بعد سنوات قليلة أدباً غربياً صرفاً . ذلك أن الأدباء العرب يلقحون الأدب العربي بالأدب الغربي وهم بذلك يشوهون الأدب الغربي ويفسدون الأدب العربي . متى يصبح لأدبنا الأثيل طابعه الخاص ولونه الخاص وشكله الخاص. للعرب أمجادهم في ميدان الأدب ، وها نحن نرى اليوم ، الغرب يستعين بالأدب العربي القديم . . ستوديوهات هوليود تظهر قصص ألف ليلة وليلة على الشاشة الفضية ، دور النشر الفرنسية والانكليزية تترجم روائع ابن المقفع وابن سينا والإمام علي

رضي الله عنه ، فلماذا نكفر بأدبنا ونلجأ إلى أدب الغير ؟ » .

وأعجبتُ شديد الاعجاب بآرائها وبأسلوبها في الحديث .

وشاركتها الرأي .

وناقشتها في كثير من الآراء .

ولاح منها أنها كانت مرتاحة إلى آرائي أيضاً ...

وعندما وقفت أودعها قالت لي : أرجو أن تشرفني غداً لتناول الطعام على مائدتي .

وحاولت الاعتذار ، إلا أنها أصرت .

ولمستُ في نفسي رغبةً شديدة ملحاحاً لتلبية دعوتها فهمست : إن شاء الله .

وودعناها وعدنا إلى دار صديقي .

وفي الطريق قال لي الصديق : هذه المرأة تحمل في صدرها سراً رهيباً . إذا استطعت أن تنتزع هذا السر من صدرها توفرت لديك قصة رائعة ممتعة .

ولم أجب . لم أنبس بحرف . لقد كنت منصرفاً انصرافاً كلياً إلى التفكير بسلوى ..

وقضيت ليلتي تلك في دار صديقي ..

وعندما آويت إلى سريري محاولاً النوم ، لم استطع إلى النوم سبيلاً . كان صوت سلوى يرن في أذني : « يا فؤاد » .

كذلك كان الصدى البعيد يتجاوب في فؤادي ، وهو يردد صوت سلوى وهي تنادي بصوتها الحنون الشجي : «يا فؤاد».

ورحت أستعيد في مخيلتي وقفة سلوى فوق تلك الصخرة العالية عندما كانت تنادي فتردّد الوديان والتلال والوهاد صدى صوتها .

ورأيتها بعين الخيال دامعة العين كسيرة الخاطر مهيضة الجناح في وقفتها تلك ونسيم الغروب العليل يلاعب أطراف ثوبها ويعبث بشعرها وهي لا تأبه ، وتمضي في ندائها .

وأيقنت أن كل ما قال صديقي صحيح ، وأن في صدر سلوى سراً هائلاً رهيباً .

ولم أستطع أن أستسلم لسلطان الكرى إلا والفجر ينشر وشاحه الجميل على تلك الوديان والجبال ..

واستفقت من النوم في الساعة الثامنة على صوت صديقي : « قم لنتناول قهوة الصباح » .

ونهضت من السرير ...

وخرجت مع صديقي إلى الشرفة حيث جلسنا نرشف القهوة ونتجاذب الأحاديث .

وقال لي صديقي : أنت ستقضي نهـــارك عندنا اليوم . وستتناول طعام الغداء على مائدة « الست » سلوى .

ـ : سنتناول الطعام عندها معاً . أنا وأنت .

ـ : لا . أنا لن أرافقك إلى دارها .

قلت باستفهام : لماذا ؟

ـ : أريد أن أفسح أمامك المجال لانتزاع ذلك السر من صدرها ، فهي قد لا تبوح بسرّها لك أمام إنسان آخر .

وقضيت طيلة قبل الظهر في دار صديقي . ثم إنني عند الظهر شخصت إلى قصر « الست » .

كانت سلوى جالسة على الشرفة تطالع كتابـــاً فرنسياً فهبّت إلى الترحيب بي شديد الترحيب .

وجلست قربها على الشرفة .

ورحنا نتحدث شتى الأحاديث . .

وكنت أتحين الفرص لأثب إلى صدرها وانتزع السر من ذلك الصدر .

إلا أن الفرص لم تسنح لي ، فلم تكن سلوى لتترك لي مجال السؤال . .

وأخيراً أطلّت الخادمة لتقول : الطعام جاهز يا سيدتي .

والتفتت ربة القصر المنيف إليّ لتقول : تفضل .

قالت هذا ونهضت .

ونهضت أنا .

وسارت بي إلى قاعة الطعام .

ومررت قربها في ممر طويل رصفت أرضه بالرخام اللامع الناصع البياض .

ووصلنا إلى البهو في طريقنا إلى غرفة الطعام .

وحانت مني التفاتة إلى صورة زيتية كبيرة معلقة في الحائط .

وكانت الصورة تمثل شاباً وسيماً قوياً يطفح وجهه بالقوة والوسامة والشباب .

والتفتّ إلى « الست » أسألها :

ـ : صورة من هذه الصورة يا ست سلوى ؟

وتابعت سلوى سيرها إلى قاعة الطعام دون أن تجيب . فكأنها تأبى أن يعرف أحد من هو ذاك الشاب .

ووصلنا إلى قاعة الطعام .

كانت تلك القاعة فخمة إلى أبعد حدود الفخامة ، أنيقة

إلى أعظم حدود الأناقة ، في وسطها مائدة كبيرة سوداء .

وحول المائدة مقاعد رصعت بعد أن طليت بطلاء مذهب .

وكان على المائدة أطباق من البورسلين مزينة بالذهب وأوانٍ فضية ثمينة .

وفي الجدران شنقت رسوم زيتية رائعة . وملخص القول : كانت تلك القاعة شبيهة بقاعات الطعـــام في قصور الملوك والأمراء والرؤساء . .

ودعتني سلوى للجلوس فجلست .

وجلست هي قربي .

ولم تلبث أن جاءتنا الخادمة بالطعام فراحت سلوى تقدم لي الطعام مرحبة بي شديد الترحيب . .

وعندما انتهينا من تناول الطعام نهضنا لنعود إلى قـــاعة الاستقبال .

ومررنا بالبهو في طريقنا إلى قاعة الاستقبال فألقيت بنظرة سريعة على تلك الصورة التي تمثل الشاب ، لكنني لم أنبس بحرف ولم أعد إلى طرح السؤال على سيدة القصر . لم أسألهـــا من هو هذا الشاب ، بل تابعت سيري قربها إلى أن وصلت بي إلى قاعة الاستقبال . .

ودهشت وقد وصلت إلى قاعة الاستقبال وشاهدت صورة زيتية كبيرة تمثل ذلك الشاب .

كانت الصورة ضمن إطار مذهب فخم ، وكانت تمثل ذلك الشاب وهو يبتسم .

وكنت قد شاهدت تلك الصورة ليلة أمس عندما دخلت إلى تلك القاعة مع صديقي إلا أنها لم تثر اهتمامي ، أما الآن ، بعد أن شاهدتها مرتين متواليتين ، في البهو وفي الصالون ، فقد أردت أن أعرف من هو صاحب ذلك الرسم .

أردت أن أعرف من هو ذلك الشاب الوسيم القوي الجميل الذي تحتفظ سلوى له بصورتين كبيرتين في قصرها . .

وجلست سلوى ، وجلست قربهـــا على المقعد الرجراج الوثير ، والتفتّ إليها أسألهـــا : من هو صاحب هذه الصورة يا « ست » سلوى ؟

ولم تجب سلوى ، بل تظاهرت بأنها لم تسمع سؤالي .

وكانت الخادمة قد جاءتنا بالقهوة فتناولت سلوى فنجان القهوة عن الصينية وقدمته لي هامسة : تفضل .

وتناولت الفنجان من يدها وأنا أحدق بتلك الصورة .

وساد الصمت بيننا برهة من الزمن .

ولاح لي من سلوى أنها غارقة في تفكير عميق بعيد قصي . .

وأخيراً ، بعد صمت طويل التفتت سلوى إليّ لتقول :

ـ : الحياة في هذه الربوع رائعة جميلة . أنا هنا بعيدة عن كل شيء، عن الصخب والضجة والناس، بعيدة عن المدينة وعن الضوضاء وعن الشائعات والأقاويل ، بعيدة عن كل شيء ، إلا أنني قريبة من الله .

ولم أحس بحرف .

كنت لا أزال أحدق بتلك الصورة الزيتية الجميلة المعلقة في الجدار .

وحاولت سلوى، كما لاح لي منها، أن تصرفني عن التحديق في تلك الصورة فهمست : ما بك ؟. انني أراك غارقاً في تفكير عميق ؟

وهمست بتساؤل شديد ملحاح : هل أستطيع أن أعلم من هو صاحب هذه الصورة يا « ست » سلوى ؟..

وعادت سيدة القصر إلى الصمت الطويل تنغمس فيه .

وعدت إلى الكلام لأقول : هل أزعجك سؤالي ؟.

والتفتت إليّ . فوجمتُ، وأنا أرى الدموع عالقة في أهدابها .

وأدركت ، ولكن بعد فوات الأوان ، أنني أسأت إلى شعور هذه المرأة .

يبدو أن لصاحب هذه الصورة ذكريات مؤلمة رهيبة في قلب سلوى .

ولم يكن لي أن أثير هذه الذكريات ولا أن أنكأ تلك الجراح الثخينة .

وهمست سلوى بعد صمت قصير : هل تريد أن تعرف من هو ؟ لا بأس . سأقول لك من هو . هذا الشاب هو الذي جعل مني امرأة تحس وتحن وتشعر . انه الشاب الذي أعيش بذكرياته المؤلمة الدامية الرهيبة . انه فؤاد ..

كانت سلوى تتكلم والدموع تموج في عينيها النجلاوين الحلوتين الناعستين .

وكانت تحدق بتلك الصورة على ألم وشوق وشجن وأسى وحنين وهي تهمس : « انه فؤاد .. » .

وتذكرتُ الصدى البعيد ، تذكرت صوت سلوى وهي واقفة فوق تلك الصخرة تنادي فؤاداً فيعيد الصدى إليها النداء لحناً رهيباً خاشعاً حنوناً .

وهمست : هل كان يحبك كما كنتِ وما زلتِ تحبينه ؟

فمسحت سلوى الدموع التي بدأت تتأهب للانحدار من مقلتيها على وجنتيها وهمست :

ـ : ليتني أستطيع أن أحبه كما أحبني يا سيدي . ان حب

فؤاد كان منتهى الحب . لم يكن لحبه حدود ولا سدود . لقد ضحى من أجل حبي بكل شيء ، حتى بحياته . أما أنا فلم أستطع أن أضحي بشيء من أجل حبه .

وعادت الدموع تترقرق في عينيها الجميلتين .

وأسفتُ شديد الأسف على ما بدر مني حيالها وقد أيقنت أنني السبب في إثارة ذكرياتها المؤلمة ودموعها الملتهبة الحمراء .

ورأيت أن أكفّر عن جريمتي بمؤاساتها فهمست :

— : المحبّون يعيشون في عذاب دائم . والسعداء منهم هم أولئك الذين يستطيعون أن يبكوا كل ما في عيونهم من الدموع . ان لذة الحب في شقائه ، وسعادته في ألمه ، وحلوه في ذكرياته . كل ما يملك المحبون في هذه الحياة هو شوقهم وحنينهم .. وثروتهم كلها هي ذكرياتهم .

ولمع بريق ساطع جميل في عيني سلوى وهمست :

— : هل يخيل إليك أنني كنت أستطيع أن أحيا لولا ذكرياتي ؟ إن تلك الذكريات الرهيبة المقدسة الجميلة هي كل ما أملك في هذه الحياة . أنا أعيش الآن في ذكريات فؤاد . أنا أراه قربي أنى سرت وكيف اتجهت . فهو يحيا معي .. هنا في هذا القصر ، وهناك في الحديقة ، وهنالك في الغابة الخضراء . فؤاد لم يمت لا ، لا ، لا . لم يمت فؤاد. انه ما زال هنا يحيا في خاطري ، في قلبي ، في روحي ، وفي دموعي .

وتدحرجت الدموع غزيرة على وجنتيها .

وأخذت ترتجف كأنها ورقة في مهب الرياح العاتية الهوجاء .

وعاد الصمت يخيم حولنا بأجنحته الباردة السوداء. ورحت أبحث في خاطري عن كلمات أنثرها في مسمع سلوى أدفع بها الألم عن فؤادها والدمع عن مقلتيها .

رحت أبحث عن كلمات التشجيع والمؤاساة .

إلا أنني عجزت عن العثور على كلمة واحدة من تلك الكلمات التي يتطلبها الموقف .

كان منظر تلك المرأة البائسة في دموعها وشوقها وألمها وحنينها وعذابها قد أثار ألمي وأسفي وإشفاقي فضاعت كلمات التشجيع والمؤاساة من خاطري ..

وطال صمتنا .

وأخيراً ، وبعد صمت طويل التفتّ إليها لأقول :

— : يكفيك يا سيدتي من دنياك هذه الذكريات . نحن على هذه الأرض الفانية لا نملك سوى ذكرياتنا وآمالنا . نعيش في أمسنا بذكرياتنا ، ونحيا في غدنا بآمالنا .

— : أنا لم يعد لي أمل . لقد أضعت أملي يوم فقدت فؤاد . أملي الوحيد هو الموت . إنني لأتمنى أن أموت لعل

الموت يجمعني بحبيبي الذي أبعدته عني الحياة . إن الموت يكون أحياناً أشد وأبعد رفقاً بالإنسان من الحياة . وكثيرون هم الذين يحبون الموت ويكرهون الحيـــاة ، وأنا بين هؤلاء الكثيرين والكثيرات .

وتناولتُ علبة التبغ عن المنضدة فقدمت لهـــا لفافة وألقيت بلفافة أخرى بين شفتي ، ثم أشعلت اللفافتين لأقول :

– : هل لي أن أطلب منك الاطلاع على تفاصيل المأساة يا « ست » سلوى ؟..

ونفثت دخان اللفافة في الفضاء لتهمس:

– : أرجوك ، لا تحاول العودة بي إلى تلك الأيام الآفلة الجميلة التي قضيتها قرب فؤاد ، لا تحاول تعذيبي يا سيدي .

ولمست في كلامها اللطف واللين .

ورأيت الفرصة سانحة لإلقاء الشرك فألقيت الشرك .

قلت : ان الإفصاح عن الهم يخفف عن كاهل الهموم ، والبوح بما في القلب من أسرار يريح القلب .

ونفثت دخان اللفـــافة في الفضـــاء وراحت تحدق ، عبر النافذة بقطعان الغيام القليلة التي كانت قد بدأت تنتشر فوق رؤوس الجبال .

ومضيت في الكلام لأقول : ثقي أن البوح بهذه الأسرار

التي تثقل صدرك ستريحك بعض الأراحة . أنا صديق، صديقٌ حمل من الألم ما تحملين ، ومن العذاب ما تتعذبين وعرف معنى الألم والدمع والأسى والعذاب .

والتفتت سلوى إليّ لتقول :

الحقيقة أنني أصبحت بحاجـــة إلى البوح والافصاح. انني لأشعر بثقل هذه الهموم السوداء التي تحتل قلبي. أشعر بالعبء الثقيل يرهق صدري ويعذب روحي. أنا بحاجـة إلى صديق أبوح له بسري ، بحاجـــة إلى أخ أفشي له كل ما يجول في صدري. سأروي لك يا سيدي المأساة، سأطلعك على تفاصيل الفاجعة . سأخبرك كل شيء، ولكن ..

وتوقفت سيدة القصر عند كلمة « ولكن » لتمج اللفافة وتنفث دخانها في الفضاء .

وخشيت أن يكون وراء كلمة « ولكن » ما يحول دون وقوفي على تفاصيل المأساة فهمست :

– ولكن .. ماذا يا ست سلوى ؟

– ولكن لي عندك رجاء .

– ما هو ؟

– رجائي إليك أن تكون صادقاً في كل ما تكتب إذا قدر لك يوماً أن تكتب قصتي هذه .

فوجئت . كيف علمت سلوى أنني أنوي كتابة قصتها ؟.

وتابعت كلامها لتقول :

ـ : أنا أعلم أنك تريد قصة تروي تفاصيلها لقرائك وأنت ستقع على ما تريد . ستجد في مأساتي قصة رائعة . وستكتب هذه القصة ، وسيطالعها الجميع . لا بأس . أنا ليس لي في هذا المجال أي اعتراض ، ولكنني أرجوك أن تنتهج الصدق في كل كلمة تخطها . هل تعدني ؟

ـ أعدك بأنني لن أنقل لقرائي سوى الصدق .

ـ ورجاء ثان .

ـ ما هو ؟.

ـ أن تخفي اسمي وراء اسم مستعار تختاره أنت .. اسمي ، واسم حبيبي .

ـ ما تعودت أن أفشي أسرار الناس . ان جميع الاسماء التي سترد في القصة ، يوم أكتبها ستكون مستعارة .

ـ إنني لأومن بوعدك . ولذلك فأنا لن أخفي عنك أي سر من أسراري . سأروي لك كل شيء ، كل شيء .

قالت هذا ، ونهضت هامسة : تعال ..

وسارت ، وسرت قربها ..

وخرجت إلى الشرفة فخرجت معها ..

ووقفت على الشرفة لترفع يدها وتشير بها إلى كوخ صغير ينحني تحت ثقل السنين وينزوي تحت سنديانة عجوزة وهمست :

هذا هو مسكنه .. هناك في هذا القبو المحدودب الظهر كان يقيم فؤاد . هناك كان يقيم منذ سنوات بعيدة . أما الآن ، فهو يقيم هناك هناك ، فوق .. في السماء .. هل تشاهد هذه الغمامة البيضاء المنتشرة فوق جبال الأرز ؟. فؤاد هناك .. فوق هذه الغمامة . ان روحه الطاهرة ترف مع رفات هذه الغمامة الناصعة البياض ، ونفثات تلك الروح العطرة تهب عليّ مع نفثات أغصان الأرز الدائمة الاخضرار .. انه قربي . وروحه الطاهرة تحيط بي وتغمرني بالحب والعطف والحنان .

وطفت على شفتيها ابتسامة واهنة صفراء ، وترقرقت الدموع في عينيها . وصمتت ..

ولم يطل صمتها ...

ثوان قليلة وعادت إلى الكلام لتقول :

ـ : إجلس .. إجلس هنا . هنا على هذا المقعد .

وجلستُ ، جلست حيث أشارت على مقعد جلدي وثير ..

وجلست سلوى قربي وبدأت تروي لي قصتها ..

قصتها ؟. لا . بل هي أخذت تروي لي مأساتها الرهيبة السوداء .

٢

قالت سلوى وهي تنظر إلى الفضاء الواسع الرحيب :

« بدأت المأساة منذ زهاء ثلاثين سنة ... يومذاك كنت في العاشرة من عمري وكان والدي يحيطني بعنايته وباهتمامه ويقف عليّ كل عطفه وحنانه . فأنا وريثته الوحيدة . وكل آماله معقودة عليّ .

وكانت ، يومذاك ، أمي ، ترعاني بحبها وتغدق عليّ كل ما في قلب الأم من عاطفة وحب وشعور وحنان وحنين .

وكانت سعادة الأطفال تغمر روحي . فأنا سعيدة كل السعادة في قصر والدي ، لا سيما والجميع هنا في القصر يحبني ويدللني ويغمرني بكل اهتمام . حتى الخدم الذين كانوا في القصر كانوا يغمرونني بعطفهم وبعنايتهم .

ووالدي كان سيد هذه المزرعة الهاجعة تحت أقدام الأرز الخالد . كان والدي وعمي إبراهيم شقيقه يملكان هذه المزرعة ، فهما قد ورثاها عن والدهما . وقد يكون والدهما ورثها عن والده ايضاً .

وكان الفلاحون الذين يعملون في هذه المزرعة يدينون لوالدي بالولاء ويحترمونه شديد الاحترام . أما عمي فكانوا يخافونه لأنه كان قاسياً معهم شديد الحزم والعزم لا يتهاون ولا يرحم ولا يلين .

وكان ابن عمي إبراهيم ، وحيدٌ ، يكبرني بسنتين .

كان وحيد في الثانية عشرة من عمره ، وكان مثل والده .. كان قاسياً فظاً شرساً ، لذلك فقد كنت أخشى اللعب معه ، بل كنت أهرب منه .

وكان يلحق بي كلما هربت منه محاولاً فرض سلطانه وقوته عليّ .

وأنا ما زلت اذكر يوم صفعني لأنني رفضت أن ألعب معه بالكرة ، فما كان مني سوى أنني رشقته بالحجر فأدميت جبينه . ولقد هرول وحيد باكياً إلى القصر . وعلم والدي بالأمر فعاقبني عقاباً صارماً ..

لم أكن اشارك ابن عمي وحيد اللعب ، بل كنت ألعب مع فؤاد العاصي ، مع ابن الفلاح سليم العاصي .

كان والدي يحب والد فؤاد ويعطف عليه ، وكثيراً ما كان يعهد اليه بمراقبة الفلاحين والإشراف على اقتسام الحنطة ومحاسبة العمال .

وكان سليم العاصي وزوجته سعدى يترددان إلى قصرنا .
وكانت سعدى زوجة سليم تقضي أكثر اوقاتها في القصر، تساعد الخدم وتقوم بتنظيف غرفة أمي ، التي كانت تثق بزوجة سليم العاصي هذا ثقة عمياء ، ولم تكن تسمح لغيرها بالدخول إلى غرفتها .

وكان من الطبيعي أن يتردد فؤاد إلى قصرنا، ومن الطبيعي أيضاً ان تنشأ بيني وبينه صداقة متينة الاركان ..

كان فؤاد يومذاك في مثل عمري في العاشرة أو في الحادية عشرة من العمر. وكان يعطف عليّ عطفاً شديداً وكنت انا ايضاً أبادله العطف والحنان .

وكان يروق لي أن أقضي بعض الوقت معه ، حيناً في الحديقة وأحياناً في البستان، وتارة عند ضفاف الجدول العذب الرقراق وطوراً بين الأشجار الوارفة الخضراء .

كان والدي قد عهد إلى إحدى المدرّسات بتلقيني العلوم في القصر فكانت المدرّسة تحضر صباح كل يوم إلى القصر فتلقنني العلوم مدة ساعتين . أما فؤاد فكان قد بدأ يذهب إلى مدرسة القرية كل يوم .

كان يشخص إلى المدرسة ، مع رفاقه الصغار ، في الصباح ولا يعود منها إلا في الساعة الرابعة بعد الظهر . وأكون أنا في انتظاره، فننطلق معاً إلى المروج الخضراء أو إلى البستان أو إلى الحديقة أو إلى ضفاف النهر ، نلعب ونضحك ونتراشق بالمياه وبالأثمار وبراءة الطفولة تطل من عيوننا الصغيرة الحالمة .

ولم يكن ابن عمي وحيد راضياً عن تلك الصداقة القائمة بيني وبين فؤاد . وكثيراً ما كان يلحق بنا محاولاً مشاركتنا اللعب ، إلا انني كنت أرفض ذلك وأمسك بيد فؤاد لأبتعد به عن وحيد ..

وذات يوم من أيام الربيع المرح الاخضر الريان كنت مع فؤاد عند ضفاف الجدول الصافي الرقراق . ولحق بنا وحيد.. وعندما شاهدته مقبلاً نحونا أمسكت بيد فؤاد هامسة :

-: تعال يا فؤاد . تعال نبتعد إلى ما وراء تلك الأشجار الباسقة قبل أن يرانا وحيد .

وأذعن فؤاد لأوامري .

وحاولت الابتعاد مع فؤاد إلا أن وحيداً هرول مسرعاً إلينا وأدركنا قبل أن نبتعد عن الضفة .

ووثب إلي ليمسك بيدي ويشدني إليه هادراً : تعالي ..

وصرخت به : أتركني .



قال والغضب يهزه هزاً : قلت لك تعالي .

وأخذت أعمل على انتزاع يدي الصغيرة من يده ، إلا أنني عجزت عن ذلك .

ووثب فؤاد يدافع عني محاولاً انتزاع يدي من يده ، إلا أن محاولته تلك لم تكن إلا لتزيد غضب وحيد وحقده ...

واستشاط وحيد غضباً ، وهو يرى فؤاداً يدافع عني . وأمسك بكتفي وقذف بي إلى الجدول ...

وذعرت ، وجسدي الصغير النحيل يلامس المياه الباردة . وكانت المياه في الجدول كافية لابتلاعي ، بل أشرفت على الغرق . وحاولت الصراخ والاستنجاد إلا انني عجزت ..

وبدأت المياه تغمرني . وسارت بي المياه فاستسلمت إليها ، وقد أيقنت انني عاجزة عن الدفاع ..

وإذا بفؤاد يثب إلى الجدول ويلحق بي ليمسك بيدي ويجرني إلى الضفة الثانية ..

وأنقذني فؤاد من الغرق ..

ولمس وحيد هول جريته فانطلق مسرعاً إلى القصر ..

وراح فؤاد يلاطفني ويحاول اسعافي إلا أنني كنت في حالة تفتت الأكباد . كانت ثيابي مبللة بالمياه . وكنت

أرتجف من الخوف ومن البرد . وكانت المياه قد ذهبت بحذائي فأصبحت حافية القدمين . .

ولم يكن خوف فؤاد عليّ بأقل من خوفي على نفسي ، فنزع قميصه عنه وراح يجفف بها شعر رأسي ويديّ وقدميّ ، ثم نزع حذاءه ووضعه في رجلي . .

وأمسك بيدي هامساً :

— : تعالي معي إلى منزلنا ، سأجفف ثيابك بيدي يا سلوى . .

وكنت قد استعدت بعض قواي فهمست : لا . لا يا فؤاد . . خذني إلى « الماما . . » .

وأمسك فؤاد بيدي وسار بي إلى القصر . .

ودخلت إلى القصر . . وعاد فؤاد أدراجه .

وما أن وقع نظر أمي عليّ حتى انتابها الذهول . لقد وثبت إليّ تسألني والذعر يطل من عينيها :

— : ما بك يا « ماما » ؟ . . ماذا دهاك ؟ . ماذا حلّ بك ؟ . أين كنتِ ؟ .

وانهالت أسئلة والدتي عليّ . . ولم أستطع أن أجيب على سؤال واحد من تلك الأسئلة . . .

وارتميت على صدر أمي وأجهشت بالبكاء . . .

وراحت أمي تنزع عني ثيابي المبللة بالمياه وهي تتمتم :

— : قولي لي أين كنتِ ؟ . ماذا فعلتِ ؟ . كيف تبللتِ بالمياه ؟ . . وأخيراً : ما هذا الحذاء الذي تنتعلينه ؟

وقد استطعت بعد أن نزعت أمي عني الثياب المبللة وألبستني ثياباً نظيفة ، أن أتمتم : لقد وقعت في الجدول .

وتساءلت أمي : كيف وقعتِ ؟ .

— : زلت بي القدم فسقطت .

ولمست أمي الكذب في ما أقول فأمسكت بيدي لتقول :

— : الكذب جريمة يا سلوى . والله يعاقب الكذاب عذاباً مروعاً رهيباً . قولي لي كيف وقعتِ في الجدول ؟ . .

وأرعبني كلام أمي . فهمست :

— : لقد دفعني وحيد إلى المياه بيديه .

قالت أمي وكأنها قاض يستجوب مجرماً : لماذا ؟

قلت ، ببراءة الأطفال :

— : لأنني كنت ألعب مع فؤاد ولم أشأ أن يشاركنا اللعب .

ووجمت . أمي وشاهدتُ الذهول والوجوم يطلان من عينيها . وصمتت هي لم تنبس بحرف .

ولاح لي منها أنها منصرفة إلى التفكير العميق .

بماذا كانت تفكر أمي ساعتئذ ؟. لست أدري ..

لم أعلم ماذا حدث بالتفصيل يومذاك إلا أنني علمت في اليوم التالي أن عمي والد وحيد ضرب ابنه لأنه ألقى بي في الجدول .

وفي المساء انتظرت عودة فؤاد من المدرسة أمام الحديقة ، هنا .. أمام هذا الباب الحديدي الكبير ..

وشاهدت فؤاداً مقبلاً مع رفاقه من المدرسة والأسى باد عليه ..

وعندما أقترب مني وثبت إليه قائلة : تعال يا فؤاد .. تعال نلعب معاً .

والتفت فؤاد إليّ ورفع سبابته إلى فمه وهمس :

— : هس ، لا ترفعي صوتك .

— : لماذا ؟

— : يبدو أن أهلنا لا يريدون أن نلعب معاً يا سلوى .

فوجمت ، وهمست : لماذا ؟. لماذا يا فؤاد ؟

وهمس فؤاد : صباح اليوم ضربني والدي وقـــال لي : « لا تلعب مع ابنة البيك .. إذا علمت أنك تحدثت إليها أو أنك لعبت وإياها فأنا سأقصف عمرك . » هذا ما قاله لي

والدي يا سلوى . وأنا لا أستطيع أن أخالف أوامر والدي.

وازددت وجوماً ، فأنا لا أعلم لماذا يمنع أبو فؤاد ابنه من التحدث إليّ ..

لم أعلم شيئاً يومذاك ، إلا أنني علمت بعدئذ أن والدي وعمي هدّدا سليم الماصي بالطرد من المزرعة إذا سمح لابنه بان يكلّمني ..

ومنذ ذلك اليوم لم أعد ألعب مع فؤاد . إلا أنني كنت أراه كل يوم في ذهابه إلى المدرسة وفي عودته منها .

وكثيراً ما كنت أنتظره أمام باب الحديقة ، لأحمل إليه قطعة حلوى أو « حبة شوكولا » أو حفنة من «البونبون» .

وكنت أجلس وإياه من حين إلى آخر تحت ظلال الأشجار على ضفة الجدول الصافي الميـــاه نتبادل الأحاديث ونروي لبعضنا القصص والأخبار .

أما ابن عمي وحيد فلم أكن لأركن إليه ، وكنت قد بدأت أشعر بكره شديد نحوه بعد أن ألقى بي في الميـــاه . وكأن حاستي السادسة قد أنبأتني بأنه سيكون سبب شقائي وتعاستي على هذه الأرض » .

٣

كانت الشمس قد بدأت تستعد للتواري وراء تلك الجبال الشاهقة الخضراء عندما وصلت سلوى في كلامها عند هذا الحد من القصة .

وكانت ظلال الجبال والأشجار قد بدأت تنتصب في الوادي السحيق ، والسكون بدأ يخيم على تلك الوهاد والتلال الرائعة الجمال ، فألقت سيدة القصر نظرة سريعة على الساعة الذهبية المشدودة إلى معصمها وهمست : الساعة بدأت تميل إلى الخامسة من المساء ، وهذا هو موعد نزهتي اليومية ..

ونهضتْ .. ونهضتُ أنا مودعاً .. وهمستُ :

— : سأكمل لك قصتي غداً إن شاء الله .

— : إذا سمحتِ بأن أعود إليك هذا المساء لأستمع إلى تتمة هذه القصة أكون لكِ من الشاكرين .

وقالت ، بعد تفكيرٍ قليل :

— : لا بأس .. سأكون بانتظارك هنا في الساعة الثامنة .

وودّعتها وسرت ..

وعندما ابتعدت قليلاً عن القصر التفت إلى الوراء لأشاهد سلوى خارجة من قصرها ..

وكنت كلما سرت مسافة قصيرة ألتفت إلى الوراء لأشاهدها سائرة في الطريق الضيق الملتوي الطويل ، بين الأشجار الباسقة الخضراء شاخصة إلى تلك الصخرة العالية حيث شاهدتها مع صديقي نعيم أمس ..

وبعد قليل سمعت صوتها يتردد في تلك الربوع :

— : يا فؤاد .. يا فؤاد .. يا فؤا .... د .

وكانت الوديان والجبال والوهاد والتلال تردد الصدى البعيد لحناً شجياً كئيباً حزيناً .

* * *

وفي الساعة الثامنة كنت في ذلك القصر الشاهق المنيف..

واستقبلتني صاحبة القصر بالحفاوة والترحيب وهمست :

— : أين تفضل الجلوس ؟ على الشرفة أم في « الصالون »؟

– : حيث تريدين يا ست سلوى .

– : أليس من الأفضل أن نجلس على الشرفة ؟ ان منظر الجبال والوديان والوهاد والربى والتلال في الليل رائع جميل . تعال .

وسارت ...

وسرت قربها إلى الشرفة .

وكان المنظر رائعاً حقاً .

كانت الجبال الخضراء تهجع في أحضان الليل البهيم ، وكانت الوديان السحيقة تبدو من الشرفة العالية كأنها خضم هائل قاتم السواد .

أما السفوح ، وقد كستها الاشجار الباسقة الخضراء فقد بدت كأنها مارد جبار معلق بين الأرض والسماء .

كانت أنوار المنازل مبعثرة بين تلك الجبال والوديان والتلال ، كأنها حبات من الياقوت ترصع صفحة سوداء .

وكان القمر قد بدأ يطل من وراء تلك الجبال الشاهقة الرهيبة كأنه عاشق متيم ولهان يتلصص على حبيبته من وراء الاسوار .

والهدوء يلف لبنان بوشاحه البارد الكئيب .

لم يكن هناك سوى نقيق الضفادع يتماوج من حين إلى آخر في تلك الانحاء ممزقاً آذان الليل البهيم .

ومن حين إلى آخر كان يهب نسيم الليل العليل المعطر بأريج الصنوبر وبعبير أرز الرب ، فتتهادى أغصان شجرة السنديان الكبيرة الممتدة فوق الشرفة على حنو وحنان ، مرسلة حفيفاً خفيفاً اشبه بأنغام الملائكة وبهمسات الأرواح .

ووقفت قرب سيدة القصر نمتع انظارنا بتلك المناظر الخلابة الفاتنة .

وهمست سلوى وهي تنظر إلى الوهاد والتلال الغارقة في أحضان الليل : « هنا .. هنا في هذه الوديان وعلى هذه الجبال ، وفي حنايا هذه السفوح كان مرتعنا .. ان هذه الاشجار ما زالت تذكر همساتنا وآهاتنا ولوعتنا . وهذه الصخور ما زالت تحن إلى جلساتنا ، كل ما في هذه الربوع يذكرني بفؤاد .. ترى هل يذكرني فؤاد الآن ، كما أذكره ؟. هل يشتاق إليّ كما أشتاق إليه؟ هل يحن إليّ كما أحن إليه ؟»

كانت وهي تنطق بهذه الكلمات تحدق بالجبال وبالوديان ، كأنها تسألها وكأنها تنتظر منها الجواب ...

ولم انبس بحرف ، بل اكتفيت بمشاهدة تلك المناظر الرائعة فكنت اريد أن أشبع عيني من التهام تلك الصور البديعة والرسوم الجميلة والمناظر السمحاء ..

وساد الصمت بيننا برهة من الزمن ..

وكان نور القمر الفضي قد بدأ يقترب منا ليسكب علينا وشاحه الابيض اللامع الجميل .

وعلى ضوء القمر شاهدت وجه سلوى الحزين .

ودهشت وأنا أرى الدمع يتدحرج على وجنتيها كحبات اللؤلؤ البيضاء ..

وكأن سلوى لاحظت أنني شاهدت دموعها فرفعت منديلها الناصع البياض تمسح الدمع المتدحرج على وجنتيها وتهمس :

— : تعال نجلس هنا. هنا على هذا المقعد المطل على الوادي.

وجلستْ .

وجلست قربها .

وتناولت علبة التبغ لتتقدم لي لفافة وتلقي بلفافة بين شفتيها .

وتناولت الولاعة من جيبي لأشعل اللفافتين دون أن أنبس بحرف . فأنا لم أستطع أن أهمس بكلمة ، حتى ولا بكلمة شكر على اللفافة التي قدمتها لي .

كان منظر دموعها وهي تخاطب الجبال والوديان والتلال قد أثار في قلبي عاطفة الشفقة والأسى والشجن .

والتفتت سلوى إليّ لتقول :

— : كم كانت جميلة تلك الأيام . إن الإنسان لا يرى جمال الأيام إلا من بعيد ، إلا بعد أن تتوارى تلك الأيام . ان الأمس أجمل من اليوم واليوم أجمل من الغد . ايام الإنسان على هذه الأرض جميلة، وكلما تسلق الإنسان قمة الحياة شاهد أيامه، وهي تحت وهو فوق ، أبعد جمالاً وأروع فتنة وبهاء . ويمضي الإنسان في تسلق الجبل جبل أيامه حتى يبلغ القمة وعندئذ ، عندما يصل إلى القمة يشاهد كل أيامه قطعة من جمال وسناء وبهاء . ويتمنى لو أنه يعود إليها ، ولكن هيهات أن يعود ، وهو قد بلغ القمة وانحدر إلى القبر .

— : كأن الله عز وجل لا يريد أن يرفع الغشاوة عن عيني الإنسان إلا ساعة الموت يا سلوى .

— : كم هي جميلة ورهيبة تلك الساعة التي تستطيع الروح فيها أن تخرج من قفص الجسد الترابي وتنطلق في الفضاء إلى السماوات حيث لا هم ولا ألم ولا دمع ولا حزن ولا عذاب .

— : الموت جميل في عيني الروح الطاهرة المباركة ولكنه مروع مخيف في عيني الروح الشريرة المثقلة بالخطايا والآثام .

فهمست : « نجنا يا رب من الشرير » .

ونفثت سلوى دخان اللفافة في الفضاء وهمست :

- : لنعد إلى المأساة سأكمل لك سرد قصتي الرهيبة .

- : تفضلي .

- : « مضت الأيام هادئة صافية بطيئة كما تمر سحب الربيع في الفضاء . وكنت أرى الحياة ، كما يراها كل طفلة في مثل عمري ، وروداً وزهوراً ورياحين . لم أكن أعلم يومذاك ، وأنا ابنة العاشرة أن في الحياة آلاماً وهموماً ومصائب وحقداً وبغضاء وكرهاً وانتقاماً . وكنت اجتمع من حين إلى آخر بفؤاد ، ولكننا كنا نحذر دائماً العيون ، وكان فؤاد يخشى أن يراه والده وهو يكلمني فيعاقبه ويضربه . وكان فؤاد يقول لي دائماً : أنا لا أعلم لماذا يريد والدي أن يفرق بيننا .

لم يكن فؤاد يعلم ، ولا أنا كنت أعلم يومذاك أن والدي وعمي هددا والد فؤاد بالطرد من المزرعة إذا سمح لابنه بأن يلعب معي ... ولم آبه للأمر يومذاك . ولا أنا اهتممت بذلك . حسبي أنني أشاهد فؤاداً من حين إلى آخر..

وعادت الأيام تسرع في المسير .. ومضت سنتان ، ووثبت إلى الثانية عشرة من العمر وعلاقتي مع فؤاد هي هي. علاقة أخوة وصداقة ومحبة ..

وفي ذلك العام وقعت الكارثة الأولى في حياتي . فقد

توفيت أمي . وكانت أمي مصابة بداء القلب - لم أكن يومذاك أعلم أهمية ذلك الداء - وكان الأطباء يعودونها من حين إلى آخر ، وكانت تتناول دائماً مجموعة من العقاقير والأدوية والمصول ، إلاّ أن الداء كان شديداً جداً عليها ، لقد كان ذلك الداء أقوى من الأطباء ومن عقاقيرهم ومن مصولهم وأدويتهم ..

وذات ليلة من ليالي شهر تموز أصيبت أمي بنوبة قلبية شديدة ..

واستدعى والدي ثلاثة أطباء فأقبلوا يفحصون قلب أمي ليعلنوا لوالدي أن زوجته مصابة بالذبحة القلبية وانها في حالة الخطر الشديد .

وذعر والدي .

وأقبل عمي إبراهيم .

وجاءت زوجته .

وأسرع الفلاحون إلى القصر ، وقد وصل النبأ إليهم .

أمّا أنا فقد انصرفت إلى الصلاة فجثوت على قدمي أمام رسم المصلوب وأخذت أضرع إلى الله طالبة إليه أن يشفي أمي .

وفي الساعة العاشرة من الليل جاءت إليّ امرأة عمي

لتمسك بيدي قائلة :

- : تعالي يا سلوى . ان أمك تريد أن تراكِ ..

ومررت برفقة امرأة عمي إلى غرفة أمي ...

كانت أمي ممددة على السرير وحولها الأطباء الثلاثة ..

ورمقتني أمي بنظرة عميقة فيها كل معاني الحب الأمومي والعطف والحنان ..

وشاهدت الدموع تترقرق في عينيها من خلال تلك النظرة فأجهشت بالبكاء ..

وبخطوات متئدة بطيئة مرتجفة تقدمت من سرير أمي ..

ومدت أمي يدها النحيلة الصفراء لتمسك بيدي وتهمس : « يا حبيبتي يا ماما يا سلوى ... » .

وخيل إليّ أنها كانت تريد أن تنطق بكلمات أخرى إلا أن الأطباء منعوها من الكلام ..

وأشار أحد الأطباء إلى امرأة عمي بأن تبعدني عن أمي.

وعادت امرأة عمي تمسك بيدي وتهمس في أذني :

- : تعالي يا سلوى .. تعالي معي يا حبيبتي .

وهمست وأنا أمسح دموعي بكفي الصغير : « أريد أن أظل هنا . أتركوني . أريد أن أظل قرب الماما » .

وهمست امرأة عمي :

- : لا .. ان وجودك قربها يتعبها يا حبيبتي . تعالي . تعالي إلى سريرك .

وأرغمتني على المسير إلى غرفتي ..

وشاهدت والدي ، وأنا أجتاز الممر الطويل إلى غرفتي برفقة امرأة عمي . شاهدت والدي يتمشى في البهو وهو يفرك راحتيه ويبكي ..

وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي شاهدت فيها والدي يبكي ...

كان الفلاحون ونساؤهم يزدحمون في القصر ، وكان هناك بعض أصدقاء والدي وصديقات أمي ، وعلائم القلق والاضطراب والحزن تلوح على الجميع ...

ودخلت بي امرأة عمي إلى غرفتي .. لم تكن الغرفة تبعد كثيراً عن غرفة أمي . إذ كانت غرفة والدي تقع بين الغرفتين .

وساعدتني امرأة عمي على انتزاع ثيابي وعلى ارتداء ثياب النوم وقالت لي :

- : نامي الآن يا حبيبتي واستريحي . ان أمك بألف خير.

ولم أجب . لم أنبس بحرف بل اندسست في السرير ورفعت اللحاف إلى ما فوق رأسي وأجهشت بالبكاء .

لقد حاولت النوم . إلا أنني لم أستطع إلى النوم سبيلا . كانت أفكاري كلها عند أمي . فكيف أنام !

كنت أعلم أن أمي في خطر ، وأن الموت يحوم حول سريرها . لقد انقطعت عن الكلام .

وكان مما زاد في خوفي وفي قلقي منظر والدي في بكائه ودموعه .

وأخيراً تغلب النعـاس عليّ وأغمض الكرى عيني الصغيرتين ...

وانسابت الأحلام إلى رأسي فشاهدت حلماً رهيباً .

أنا ما زلت أذكر هذا الحلم حتى الآن . وكلما ذكرته ترتعد فرائصي وأشعر بقشعريرة باردة تسري في عروقي . لقد شاهدت أمي ترتدي ثوبـاً فضفاضاً أبيض بلون الثلج وهي تبتسم لي ابتسامة هادئة حلوة لطيفة .. وحاولت الاقتراب منها إلا أنني عجزت . فكأن هناك حاجزاً يفصلني عنها . وبكيت . وهمست : « ماما ... ماما ..

فاتسعت ابتسامتها على شفتيها وسـارت .. وحاولت اللحاق بها إلا أنني عجزت فرحت أصرخ : « ماما.. خذيني معك يا ماما .. خذيني معك » ..

والتفتت نحوي ونظرت إليّ نظرة حب وعطف وحنان ،

وهي تبتسم ابتسامة بدت لي بيضاء مثل ثوبها الناصع .. ثم مدت لي يديها الاثنتين وكأنها تريد أن تضمني إلى صدرها .. وفجأة ارتفعت قدماها عن الأرض وبدأت تحلق في الفضاء . وذعرتُ وأخذت أولول وأبـكي وأتمتم : « خذيني معك يا ماما ... لا تتركيني وحدي هنا ... ماما . ماما ماما.. »

واستفقت مذعورة وأنا أنادي : « ماما ، ماما ... » وكانت وسادتي مبللة بالدموع » .

ونفثت سلوى دخان لفافتها في الفضاء لتقول :

« ما زلت أذكر هذا الحلم حتى الآن . فكأنني لم أره منذ أكثر من ثلاثين سنة ، بل كأنني رأيته ليلة أمس .. وماتت أمي .

لقد فاضت روحها الطاهرة عندما كنت أشاهدها في الحلم وهي تحلق في الفضاء ..

لقد قيل ان روح الإنسان تأبى أن تغادر هذه الحياة ، قبل أن تلقي النظرة الأخيرة على من تحب . ويبدو أن روح أمي أبت أن تحلق في الفضاء قبل أن تعرج على غرفتي وتودعني الوداع الأخير .

وازدحم القصر بجميع أبناء المزرعة وأبنـاء القرى المجاورة .

وقبل أن تخرج جثة أمي من القصر اقتادتني امرأة عمي إلى غرفتها . إلى غرفة أمي ...

وشاهدت جثتها ممدّدة فوق سريرها وحولها الشموع وفوقها الورود والزهور ..

ولقد كانت في موتها ، مثلها في حياتها ، كانت تبتسم . كانت الابتسامة البيضاء تطفو على شفتيها الباردتين ..

وهمست امرأة عمي في أذني: تقدمي وقبلي يدها يا سلوى.

وتقدمت بقدمين واهيتين مرتجفتين ..

وارتميت على يدها أقبلها وأجهش بالبكاء . وأنا أتمتم : « يا ماما ... » .

وتقدمت امرأة عمي مني لتسلخني عن جثة أمي وتبتعد بي عن غرفتها .

وكان مأتم أمي عظيماً ، اشترك فيه جميع أبناء المنطقة وجمهور غفير من رجال الدين والدنيا .

وشيّع جثمان أمي إلى المقر الأخير .

وشعرتُ وقد خرجت أمي من القصر للمرة الأخيرة بأنني وحيدة في هذه الحياة وبأنني كسيرة الخاطر مهيضة الجناح ..

وفي اليوم التالي شاهدت فؤاداً . كنت واقفة أمام باب الحديقة فشاهدته وهو في طريقه إلى المدرسة .

وتقدم فؤاد مني والدموع في عينيه ليقول لي :

ـ : لقد بكيت كثيراً أمس لفقد خالتي أم سلوى.. كانت تحبني كثيراً وكانت تعطف عليّ .

ولم استطع أن أنبس بحرف ... وترقرقت الدموع في عيني .. وتقدمت منه أمسك بيده وأهمس « فؤاد .. » .

كلمة واحدة .. « فؤاد .. » فكأنني أرى في فؤاد عزائي الوحيد .

وسار فؤاد في طريقه إلى المدرسة .

ووقفت أنا أشيعه بنظرات تائهة حيرى من خلال دموعي التي كانت تموج في عيني.

وشعرت برعشة تسري في عروقيَ وأنا أشاهد فؤاداً يبتعد عني ذلك الصباح .

ومسحت دموعي ، وعدت إلى القصر .

كان ثمة بعض المعزين يجلسون قرب والدي. وكان والدي في حالة حزن شديد عميق .

ورحت أطوف بالقصر وأنا أجهش بالبكاء . كان طيف أمي يحتل كل زاوية من زوايا هذا القصر : هنا على هذا المقعد كانت تجلس أمي ، وهناك كانت تقف . هذه غرفتها ، وهذا هو سريرها ، وهذه مرآتها ، وهذا مشطها ، وهذه ثيابها ما

زالت معلقة في المشجب. كلها ، كلها بقيت هنا. أمّا أمي فقد رحلت ..

الجماد أفضل من الإنسان على هذه الأرض ، فالإنسان فانٍ والجماد أقرب إلى الخلود من الإنسان . ان آثار اجدادنـــا ما زالت هنا على الأرض أما هم فقد رحلوا إلى العالم الآخر ..

ثياب نابليون وتاجه وصولجانه ما زالت على الأرض ، فأين هو نابليون الآن ؟

دفاتر شكسبير وأقلامه وأوراقه مـــا زالت محفوظة في بريطانيا فأين هو شكسبير ؟..

صور جبران خليل جبران وأقلامه ورسومه ومخطوطاته وبعض ثيابه ما زالت هنا في بشرّي فأين هو جبران ؟.

آثار القياصرة والفراعنة والفينيقيين ثم الأمويين كلها باقية على هذه الأرض الفانية فأين هم كلهم ؟.

ان الإنسان مسافر في هذا العالم يحط في مطـــار الولادة ويطير من مطار الموت ليعود إلى وطنه الأصلي الخالد المجهول.

ـ : لا يا « ست » سلوى ، الجمـــاد ليس أفضل من الإنسان . ان الإنسان بروحه الخالدة لا بجسده الترابي الفاني. كل ما على هذه الأرض فان . حتى الأرض نفسها التي نعيش عليها فانية . ما هناك سوى الروح. الروح الخالدة التي لا تفنى ولا تضمحل ولا تموت .

هذه الجوهرة الثمينة التي يسجنها الله عز وجل في هـــذا الجسد الترابي الفـــاني مدة من الزمن ، حتى إذا وهن الجسد ، وحانت ساعة الرحيل انطلقت من قفصها لتمثل أمـام ذلك الديان المعظم الرهيب . وهنيئاً لتلك الروح الطاهرة الأبية التي تحظى بالنعيم الأبدي .

وصمتت سيدة القصر برهة لتقول :

ـ : كلامك أشبه بكلام الواعظين الذين يريدون أن يحولوا مرارة الحياة إلى حلاوة ، وقساوة الموت إلى حنان وحنين .

ـ : هذه هي الحقيقة يا « ست » سلوى . وهـــذا هو تفسير الحياة . هل لديك أنت تفسير آخر ؟.

فهمست سلوى وهي تنظر إلى النجوم السابحة في الفضاء : « آمنت بك يا رب » .

وعاد الصمت يلفنا برهة بجناحيه الباردتين ..

ولم تلبث أن عادت سلوى إلى الكلام لتقول :

ـ : فلنعد إلى المأساة . ارتميت على سرير أمي لأجهش بالبكاء .. وأقبلت امرأة عمي ، وقد وقع نواحي وعويلي في أذنيها.. واحتضنتني وهمست في أذني: إن البكاء على الأموات حرام يا سلوى . أن أحباءنا الأموات يحزنون لحزننا ويبكون لبكائنا ويتعذبون لعذابنا ـ فعلينا ، إذا كنا نريد أن نفرح أرواحهم ، أن نكون دائماً فرحين سعيدين مبتسمين .

إذا شئتِ أن تكون روح المرحومة أمك مرتاحة فرحة هانئة عليك أن تكوني أنت فرحة هانئة مرتاحة . وإذا أردت مساعدتها عليكِ أن تصلي من أجل راحة نفسها . ان الأحياء يستطيعون أن يساعدوا أرواح أحبائهم بالصلاة .

وشعرت بشيء من الارتياح وكلام امرأة عمي يقع مني في الأذنين .

وأمسكتْ امرأة عمي بيدي وسارت بي إلى جناحها من القصر . ولقد طاوعتها في ذلك .

لقد أرادت أن تبعدني عن رائحة الموت ، أرادت أن تحول بيني وبين رؤية المعزين المحزونين الباكين ..

وكانت امرأة عمي تغدق عليَّ كل ما في قلبها الطاهر النبيل من العطف والحب والحنان .

كذلك كان والدي يحيطني بعطفه وبحنانه ، وكنت سلواه الوحيدة بعد رحيل أمي عن هذه الفانية .

أمّا ابن عمي وحيد فكان يحاول استمالتي إليه ، إلّا أنني لم أكن استطيع أن أتقرب منه . كنت كلما رأيته أذكر حادثة إلقائي في الجدول ، ويخيل إليَّ أنه يريد أن يعيد الكرة وأن يغرقني في مياه ذلك الجدول الذي يتحول إلى شبه نهر أيام الشتاء .

وكان ، وما زال هدير المياه يرعبني ، فأنا حتى اليوم

لا أستطيع أن أشاهد أمواج البحر الصاخبة ولا أستطيع أن أسمع هديرها ...

ان الأحداث والمفاجئات والحوادث التي تمر بنا ونحن صغار تنطبع في مخيلتنا وترافقنا العمر كله . أليس كذلك » .

ـ : أنت على حق يا ست سلوى . في أوروبا اليوم مرض شائع هو مرض العقد النفسية . هذا المرض اكتشفه علماء النفس منذ سنوات قليلة وراحوا يعالجونه بأساليب جديدة خاصة . وأوروبا وأميركا تزدحمان بعيادات الأطباء النفسيين . لقد ثبت أن أكثر أسباب هذا الداء هي الأحداث التي كان المريض قد مر بها ، أو مرت هي به وهو صغير ..

ـ : نعم ان الأمراض النفسية مثل الأمراض الجسدية ، ويمكن معالجتها والشفاء منها . ولكن الأمراض الروحية لا سبيل لمعالجتها وليس هناك سبيل لشفائها .

ـ : هنا الخطأ . الروح المريض تعالج كما يعالج الجسد المريض . ما هو داء الروح ؟.. ان داء الروح هو الإثم ، الخطيئة . وعلاجه معروف هو الصلاة . التوبة . الرجوع إلى الله مصدر الخير والسلام والسعادة والفرح والنور. والعيادات، عيادات الأرواح كثيرة ، لا سيما في هذا الشرق الروحي . عيادات الأرواح هي في المعابد والكنائس والجوامع . أمّا الأطباء فهم رجال الدين .

ـ : ربما ، لكن هناك كثيرين من غير هذا الرأي . هناك فلاسفة وأدباء وعظام أثاروها حرباً ، لا هوادة فيها ضد رجال الدين . ألم تسمع بذلك .

ـ : الفيلسوف مجنون . والمجنون لا يحاسب على ما يقول .. عندما يتعمق الإنسان في أسرار هذا الكون ويطلع على الكثير منها يصبح فيلسوفاً . وعندما يصبح الإنسان فيلسوفاً يلتصق بالأرض ويبتعد عن السماء . ان أسرار الأرض والسماء ، أسرار هذا الكون ، كثيرة جداً لا يمكن ادراك كنهها . والفلاسفة ، كبار الفلاسفة لم يصلوا إلى سوى النذر القليل من هذه الأسرار . وعندما يدرك الإنسان « البعض » لا « الكل » يظل جاهلاً . ان عقل الإنسان محدود وهو لا يستطيع استيعاب جميع هذه الأسرار الهائلة الرهيبة . وعقل الفيلسوف عندما يستوعب بعض هذه الأسرار يظل البعض الآخر بعيداً عن كنهه فيضيع ، يضيع الفيلسوف بين الحقيقة والخيال .. أكثر الفلاسفة عاشوا كافرين . ولكنهم ماتوا مؤمنين . ومنهم فيلسوفنا جبران . لقد عاش وهو في حرب على التقاليد والمراسيم والعادات ولكنه ساعة الموت وصل إلى الحقيقة .. وما أقوله عن جبران أقوله عن جميع الفلاسفة العظام ..

وصمتت سلوى .

وراحت تنفث دخان لفافتها في الفضاء دون أن تنبس بحرف ..

وبعد صمت طويل همستُ :

ـ : وبعدئذ ماذا حصل ؟.

ـ : إلى أين وصلنا ؟

ـ : عند المياه .. عند أمواج البحر وهديره .. عند ابن عمك وحيد .

ـ : أجل .. لم أكن أستطيع أن أبادل وحيداً عاطفته يومذاك لعدة أسباب منها قسوته وشراسة أخلاقه .. ومنها ذلك الحادث . عندما ألقى بي في المياه . ومنها أنني كنت أشعر بعاطفة جامحة نحو فؤاد ، في حين كان وحيد يكره فؤاداً ، بل يسيء إليه دائماً .. ومضت أيام ذلك الصيف ثقيلة بطيئة باردة على قلبي : كانت أمي ماثلة أبداً أمام عيني . وكانت الدنيا قد أصبحت ظلاماً في نظري . ولم يكن يخفف وطأة الحزن في قلبي سوى لقاء فؤاد . وكنت ألتقي به من حين إلى آخر بعيداً عن العيون . كنت أتسلل من القصر مرة أو مرتين في الاسبوع وأشخص إلى ضفاف الجدول حيث أجد فؤاداً بانتظاري هناك ، ونجلس فوق الأعشاب تحت ظلال الأشجار نستمع إلى خرير المياه وإلى تغاريد الطيور وإلى همسات الأغصان في حفيفها بين أيدي النسيم . وكان فؤاد يروي لي الأخبار المسلية المضحكة محاولاً إبعاد

الكآبة عن نفسي ، والدموع عن عيني ، والحزن عن صدري ، إلا أنني لم أكن أستطيع الابتعاد عن الحزن والكآبة والدموع . كنت أفكر بأمي الراحلة وراء الأفق البعيد ... ان خسارة الأم لا تضاهيها خسارة على هذه الأرض ..»

وألقت باللفافة المحتضرة من يدها لتقول :

ـ : وانقضى الصيف ، وأشرف أيلول على الأفول ، وبدأ تشرين الأول يتحفز للبزوغ حاملاً معه إلى هذه الربوع تجهم الخريف واصفراره ووجومه .. وذات صباح ، فيما كنا نجلس على الشرفة ، أنا وأبي وعمي وامرأة عمي التفت والدي إليّ ليقول : ياسلوى يا ابنتي ، أنتِ الآن في الثانية عشرة من العمر وهذه السن هي سن اقتباس العلوم .

ولم أفهم ما يعني والدي فتولت امرأة عمي التفسير قائلة : « لقد عزم والدك يا سلوى على أن يدخلك إلى أحد المعاهد اللبنانية . ستقيمين في المعهد طيلة الفصل المدرسي » .

وصمتُ ..

لم انبس بحرف ...

لم أفرح للخبر ولم أحزن في بادىء الأمر ، إلا أنني عندما خلوت بنفسي تذكرت فؤاداً وأدركت أنني لن أشاهده طيلة تسعة أشهر فشعرت بانقباض ، ومرت أمام عيني غمامة دكناء ..

وعندما اجتمعت بفؤاد في المساء أطلعته على النبأ ورأيت الدموع تموج في عينيه ، وشعرت بأنه حزين فقلت له :

ـ : اطمئن يا فؤاد . إن بعادي عنك لن يطول . لكن ، قل لي ، هل ستذكرني يوم أبتعد عنك ؟.

وأمسك فؤاد بيدي يشدها ليهمس : لن أنساكِ مدى العمر يا سلوى .

وعندما عدت إلى القصر شعرت بأنفاسي تضيق في صدري وعاد طيف أمي يحوم حولي : ترى لو كانت أمي على قيد الحياة هل كان والدي قد اتخذ مثل هذا القرار ؟ وهل كانت أمي توافقه على إبعادي عنه وعنها ؟..

وبدأت أستعد للرحيل ..

لم يكن بيني وبين موعد افتتاح المعهد سوى أيام قليلة .

وكانت امرأة عمي تساعدني في جمع ثيابي وأغراضي وكتبي وفي حزم حقائبي ..

وضربوا لي موعد الرحيل في صباح الرابع من شهر تشرين الأول . ذلك أن المعهد يفتتح أبوابه في صباح ذلك اليوم ويجب أن أكون بين رفيقاتي الطالبات في الموعد المضروب .

وعزمت على أن أودع فؤاداً قبل أن أغادر القرية ..

وفي مساء الثالث من تشرين ، أي قبل الرحيل بيوم

واحد شخصت إلى ضفاف الجدول لأودع فؤاداً .

ووصلت إلى الغابة ..

وسرت باتجاه الجدول لأجد فؤاداً يجلس فوق الاعشاب ، وهو يلقي بالحصى في الماء ..

واقتربت منه . فلم ينتبه إلي .

كان فؤاد سابحاً في عالم قصيٍّ بعيد غير هذا العالم ..

وعندما أصبحت على مقربة منه التفت إلي بعد أن سمع حركتي .

في تلك اللحظة وقعت عيناي في عينيه، فشاهدت الدموع تترقرق في عينيه الصافيتين .

ودهشت . لم اكن قد شاهدت فؤاداً في مثل ذلك الموقف الحزين . لم يكن فؤاد يذرف الدموع . كان يضن بدموعه . كان ، وهو يومذاك في الرابعة عشرة من عمره ، وكأنه في العشرين ذكاء وشهامة. وكنت أقدر فيه هذه المزايا الحميدة ..

وأدار فؤاد وجهه محاولا أن يحجب عني دموعه .

ومسح تلك الدموع التي كانت قد بدأت تتأهب للانحدار على وجنتيه بكفه ..

وعدت إلى الاقتراب منه لأقول :

ــ : فؤاد ؟.. ما بك ؟ لماذا تبكي يا فؤاد ؟؟.

وانتفض فؤاد وهمس باعتداد وكبرياء : انا أبكي ؟. لا..

وأمسكتُ بيده أشدها قائلة :

ــ : أنا مثلك ايضاً متألمة للفراق . ولكن ما حيلتنا ونحن لا نستطيع أن نحول دون هذا الفراق ؟.

فالتفت إلي ليقول : متى ستغادرين القرية ؟

ــ : في مطلع صباح غد ، وانا ما جئت الآن إلا لأودعك . لن أراك يا فؤاد إلا بعد شهور بعيدة .

ــ : أما انا فسأراك كل يوم .

فدهشت ، وقلت : كيف ؟.

ــ : سأراك في مياه هذا الجدول يا سلوى . وفي ألوان هذه الزهور الفواحة الشذا والعبير ، سأراك في تمايل الأغصان وفي رفرفة الطيور ، وفي زرقة السماء ، وفي شموخ الجبال وفي امتداد أرز الرب. سأراك اينما سرت وكيفما اتجهت يا سلوى.

فشدت يدي يده وقد أثار كلامه عميق العاطفة في صدري وهمست : سأذكرك كل يوم يا فؤاد ..

ــ : تعالي نجلس هنا على ضفاف هذا الجدول يا سلوى .

ــ : لا . لا يا فؤاد . لن نجلس هنا . إنني أخشى أن يلحق بي ابن عمي وحيد إلى هنا ويعيد الكرّة في إلقائي بين طيات هذه المياه . إذا كان لا بد من الجلوس فتعال نشخص إلى هناك ، إلى التلة العالية العالقة في ذلك السفح والمطلة على

الوادي الرهيب المقدس . هناك لن تقع علينا عين ولن تقتفي خطواتنا قدم . تعال تعال يا فؤاد .

ومرتُ . فسار فؤاد قربي تحت ظلال الأشجار الوارفة الخضراء في الطريق الضيق الملتوي البعيد . مرت ويدي بيده ورحنا نتحدث شتى الأحاديث .. لم أعد أذكر بماذا تحدثنا إلا أنني أذكر أننا لم نكفّ عن الكلام حتى وصلنا إلى أعلى التلة المشرفة على الوادي المقدس السحيق ..

وكانت الشمس قد بدأت تتأهب للأفول تاركة على الأفق البعيد ذوبها القاني الاحمرار .

كان الأفق قد بدأ يخضب جناحيه بأشعة الشمس المتأهبة للأفول .

وكانت الغمامات القليلة المنتشرة في الفضاء تعكس نور الشمس المحتضر فوق هذه الجبال والربى ، ونسائم تشرين الباردة تعبث بأغصان العفص والسنديان والشربين فتتهادى تلك الأغصان بين أيدي تلك النسائم الباردة المعطاء .

وتسلقنا تلك الصخرة العاتية العالية التي تشرف على الوادي . وكان المنظر رائعاً فاتناً ، إلا أننا أنا وفؤاد ، لم نكن نشاهد في ذلك المنظر إلا معالم الحزن والأسى والدموع.

إن الانسان يعكس في عينيه مرآة روحه فإذا كانت روحه حزينة رأى الجمال حزيناً وإذا كانت روحه فرحة سعيدة رأى في السواد جمالاً وورنقاً وبياضاً ..

وروحي ، وروح فؤاد كانتا في تلك الساعة في قمة الحزن والشجن والأسى ، فلا غرو إذن ، إن نحن رأينا في جمال تلك المناظر الطبيعية الفاتنة الحزن والشجن والأسى .

كانت قطعان الماعز والأغنام والعجول والمواشي تمر بنا في طريق عودتها إلى حظائرها ، وكانت «الأجراس» الصغيرة المعلقة في أعناق العجول والماعز تقرع كلما خطت تلك المواشي خطواتها فينزل قرع تلك الأجراس في آذاننا كدقات نواقيس الحزن .

وخيم علينا الصمت بأجنحته الباردة الكئيبة السوداء ..

وإذا بصدى صوت بعيد ينزل في آذاننا . انه صوت معّاز راح ينادي قطيعه بلغة يفهمها هو وتفهمها مواشيه .

وكانت الوديان والتلال والربى والوهاد والجبال تعيد صوت ذلك الراعي إلينا صدى بعيداً رائعاً شجياً ..

والتفت فؤاد إليّ . والتفتُ أنا إليه .

وهمس : هل تسمعين هذا الصدى ، يا سلوى ؟

فأشرت برأسي مشيرة إلى أنني أسمع .

قال : انه صوت شجي .. إسمعي ، سأناديك لترد عليّ الجبال والوديان صدى اسمك .. اسمعي . اسمعي ، وراح ينادي يا سلوى .. يا .. سلوى .. يا .. سل .. و .. ى .

وردت تلك الربوع الصدى إلى مسامعنا لحناً شجيــاً فاتناً رائعاً .

وهمست : لقد جاء دوري . إسمع أنت الآن . سأناديك ليعود إليّ الصدى البعيد لحناً أشبه بألحان الملائكة في السماء . اسمع : يا فؤاد .. يا فؤاد .. يا فؤ .. اد .

وعاد الصدى إلينا .

هذا الصدى البعيد ما زال يتأرجح في أذني حتى الآن . وهذه الربى والوهاد والجبال والوديان والتلال ما زالت حتى اليوم تسمع صوتي وأنا أنادي فؤاداً ، ومــا زالت أمينة في إعادة الصدى البعيد إليّ . »

وصمتت سلوى برهة لتمسح دمعة تدحرجت على وجنتيها ثم تشعل لفافة راحت تنفث دخانها بصمت بارد كئيب .

ورحت أنا أدخن أيضاً دون أن أنبس بحرف .

كنت احترم صمتها ، وأنا على يقين أنهــا منصرفة إلى استعادة تلك الذكريات الجميلة الآفلة البيضاء ..

وطال صمتها ..

وبعد صمت طويل التفتت إليّ لتقول : « ما كان أجمل تلك الأيام وما كان أبهاها . لم أكن يومذاك أفكر بسوى أمور تافهة لا قيمة لها . كان كل همي يومذاك ينحصر في دخولي إلى

المعهد وفي ابتعادي عن فؤاد لمدة شهور قليلة . ليست جميع الهموم مثل تلك الهموم .. وطالت وقفتنا فوق تلك الصخرة العالية . وتدحرجت الشمس وراء الأفق البعيد . وبدا الظلام يزحف بجيوشه السوداء ليخفي هذه الجبــال والسفوح والوديان .

وأمسكت بيد فؤاد لأهمس في أذنه : يجب أن نعود قبل أن يدركنا الظلام يا فؤاد .

ودون أن يهمس فؤاد بحرف شدّت يده يدي وسار معي في الطريق الذي سلكناه في مجيئنا ..

وعدنا إلى المزرعة ..

وقبل أن نصل إلى القصر وقف فؤاد ليشد يدي بحرارة ويهمس في أذني : أذكريني يا سلوى .

وشدت يدي يده وهمست : هل أستطيع أن أنساك يا فؤاد ؟

قال ، والدموع تجول في مقلتيه : إلى اللقاء .

قلت ، وأنا أمسح دموعي بكفي : إلى اللقاء يا فؤاد ..

وأفلتت يده يدي ..

وسار في الطريق البعيد فوقفت أشيّعه بنظرات حائرة وهي تغمرها الدموع ، حتى توارى عن عيني ..

وعدت أمسح دموعي بكفي لأتابع سيري نحو القصر ..

وعندما دخلت إلى القصر وجدت امرأة عمي بانتظاري في البهو ..

وبادرتني بقولها : أين كنتِ يا سلوى ، يا ابنتي ؟

ـ : لقد ذهبت إلى دار صديقتي دلال لأودعها قبل سفري .

كانت تلك الكذبة هي الكذبة الأولى التي أنطق بها على مسامع امرأة عمي .

وهزت امرأة عمي رأسها وهمست : يا ابنتي يا سلوى ، ما لك ولهؤلاء الفلاحين . ان والدك سيغضب إذا علم أنك شخصتِ أنتِ بنفسك إلى صديقتك دلال لتودعيها . يجب أن تحافظي على مقام الأسرة يا ابنتي ، كان على صديقتك دلال أن تحضر هي إليكِ لتودعك ولم يكن لكِ أن تشخصي أنتِ إليها .

وهمست : ان المرحومة أمي كانت تحب هؤلاء الفلاحين وتعطف عليهم وأنا سأفعل ما كانت تفعل أمي .

ـ : العطف شيء والتنازل عن الكرامة والعبث بالمقام شيء آخر يا سلوى .. غداً عندما تكبرين ستدركين كل شيء .. تعالي الآن تعالي ، ان والدك بانتظارك .

وقادتني امرأة عمي إلى والدي ..

وكان والدي جالساً في قاعة الاستقبال يدخن النارجيلة ، والحزن الشديد بادٍ عليه ..

ونظر إليّ ليقول : أين كنتِ ، يا ابنتي ؟ أنتِ تعلمين أنكِ ستغادرين هذا القصر غداً ويجب أن تظلي قربي هذه الساعات القليلة .

وتولت امرأة عمي الجواب عني فقالت لوالدي :

ـ : كانت عند بعض صديقاتها ..

ـ : تعالي .. تعالي اجلسي هنا قربي يا سلوى .

وجلست قربه ..

ورأيت الدموع تترقرق في عيني والدي إلا أنه أبى أن يسمح لدموعه بالانحدار على وجنتيه .. وهمس بعد صمت قصير :

ـ : إسمعي . أنت ستجدين نفسك غداً ، وقد دخلتِ إلى المعهد، في بيئة غير بيئتك وفي جو غير الجو الذي كنتِ تعيشين فيه ، لذلك عليكِ أن تعوّدي نفسك على تلك البيئة وعلى ذلك الجو . كوني مجتهدة في دروسك ، يا ابنتي وعليك أن تعلمي أن الحرف الذي تتعلمينه الآن سيكون سلاحك في المستقبل . أريدك أن تكوني مثل أمك يا سلوى .

- : سأكون إن شاء الله عند حسن ظنك يا والدي الحبيب ..

وإذا بامرأة عمي تدعونا لتناول طعام العشاء .

ونهض والدي وسار إلى قاعة الطعام وسرت أنا قربه .

وكان عمي ابراهيم وابنه وحيد قد سبقانا إلى قاعة الطعام .

وجلسنا حول المائدة : والدي وعمي وزوجته وابنها وحيد وأنا .. ورحنا نتناول الطعام بصمت بارد كئيب .

وكنت أرمق المقعد الذي كانت تجلس عليه أمي من حين إلى آخر بنظرات تغمرها الدموع ..

وتمنيت لو أنني استطيع النهوض عن مقعدي والدخول إلى غرفتي لأفرغ كل ما في عيني من دموع .

والحقيقة هي أنني هممت بالنهوض ولكنني خشيت غضب والدي ، وأنا لا أريد أن يغضب والدي عليّ ، وهذه الليلة هي الليلة الأخيرة التي سأكون فيها بقربه ..

وبعد أن انتهينا من تناول الطعام نهضنا كلنا لنعود إلى قاعة الاستقبال .

وجلس عمي ووالدي يتحدثان .

وجلست امرأة عمي قربي تحدثني وتزودني بنصائحها .

وجلس وحيد بعيداً عني لينظر إليّ من حين إلى آخر نظرات لا معنى لها ولا شكل ولا لون ..

ولم تطل سهرتنا ..

فقد نهض والدي في الساعة العاشرة ليقول : يجب أن تنام الآن لأننا سننهض غداً في ساعة مبكرة في الصباح .

ونهض الجميع ..

ودخلتُ مع امرأة عمي إلى غرفتي فراحت تساعدني على نزع ثيابي وارتداء ثياب النوم ..

وعندما اندست في السرير ألقت باللحاف فوقي وهمست : تصبحين على خير ، يا ابنتي .

وخرجت من الغرفة .

وحاولت النوم ..

حاولت أن أجذب الكرى إلى عيني إلا أنني لم أوفق في المحاولة .

كنت كلما جذبت الكرى إلى عيني أراه يبتعد عني ..

ورحت أفكر ..

لقد مرت في خاطري تلك الليلة عشرات الأفكار ..

فكرت بأمي التي فقدتُها .

وفكرت بابتعادي عن والدي وعن هـذا القصر الذي درجت وترعرعت فيه . وفكرت بفؤاد . أنا سأبتعد عن فؤاد . لن أراه . لن أستمع إلى حديثه ، لن أجلس قربه على ضفاف الجدول تحت ظلال الأشجار ...

واستغرقت في التفكير ..

ولم أستطع أن أستسلم للرقاد إلا والليل قد سار خطواته الأولى نحو مطلع الفجر البعيد ..

وعندما استفقت كانت خيوط الشمس الواهية الصفراء قد بدأت تتسرب عبر زجاج النافذة وكانت امرأة عمي في غرفتي وهي منصرفة إلى ترتيب ثيابي وحشرها في الحقائب..

واستويت في السرير ..

ووثبت امرأة عمي إليّ تقبلني وتقول : انهضي يا حبيبتي. سنتناول طعام الصباح ونسير على بركات الله .

ووثبت من السرير لأغسل وجهي وأرتدي ثيابي ، ثم أخرج إلى البهو حيث كان والدي جالساً قرب عمي وهما يتحدثان .

وألقيت التحية عليهما وتقدمت من والدي أقبله وأجلس قربه ..

وبعد قليل شخصنا إلى قاعة الطعام حيث تناولنا طعام الصباح .

وفي هذه الأثناء كان الخدم قد حملوا الحقائب ودلفوا بها إلى السيارة التي كانت قد جاءت لتقلني إلى المعهد ..

وما أن انتهينا من تناول الطعام حتى خرجنا من القصر ، أنا ووالدي وامرأة عمي لنستقل السيارة ..

وفيما السيارة تسير بنا أمام القصر شاهدت فؤاداً واقفاً إلى جانب الطريق يشيّع تلك السيارة والدموع تترقرق في عينيه ..

ودمعت عيناي وأنا أشاهد فؤاداً في وقفته تلك إلا أنني استطعت أن أسيطر على دموعي وأن أمنعها من الانحدار على وجنتي ..

وسارت بنا السيارة في الطريق الضيق الملتوي البعيد الذي تحيط به الأشجار الباسقة من جانبيه .

وكنت أجلس بين والدي وامرأة عمي ، والحزن يعصر قلبي ويذيب روحي ويزهق أنفاسي .

ووصلنا إلى المعهد ، إلى معهد راهبات عبرين ، في بلدة

عبرين . فقد اختار لي والدي وعمتي ذلك المعهد البعيد عن المدينة والذي تشرف عليه ملائكة الرحمة . وهما لا يجهلان أي تقى وورع وثقافة وعلم وتهذيب في ذلك المعهد .

واستقبلتنا الأم الرئيسة بالترحيب الشديد ، وهي لا تجهل من هو والدي ولا أي مقام هو مقامه وأي ثروة طائلة تتدفق بين يديه .

وهناك في ذلك المعهد ودعت والدي وامرأة عمي وسرت مع الأم الرئيسة إلى الادارة .

وشعرت وقد ابتعد والدي عني أنني أصبحت وحيدة في هذه الحياة . لقد خسرت أمي ، وها أنا أخسر أبي الآن ..

وبدأت أفقد السيطرة على دموعي وأنا أودّع والدي .

وبدأت دموعي تتدحرج على وجنتي . واقتربت مني الأم الرئيسة تمسك بيدي هامسة : تعالي يا ابنتي تعالي .. أنتِ ستجدين في هذا المعهد كل راحة وهناء وسلام . وستكون رفيقاتك شقيقات لكِ ومعلماتك أمهات ...

والحقيقة هي انني استطعت في ذلك المعهد المتواضع الجميل ، أن أجد الراحة والهناء ، واستطعت أن أجد في الكثيرات من الزميلات الطالبات المحبة والإخلاص والصدق والوفاء .. » .

وأشعلت سلوى لفافة وصمتت برهة استعادت خلالها ذكرياتها المؤلمة الدامعة الدامية لتتابع كلامها فتقول :

« لن أطيل عليك، ولن أخبرك كل ما حدث لي في ذلك المعهد فقد كانت حياتي في ذلك المعهد باردة كئيبة، على وتيرة واحدة : دروس ، ونزهات ، وحفلات مدرسية إلى آخر ما هناك وهنالك من أحداث لا قيمة لها ..

وكنت قد بدأت أنسى موت أمي .

وبدأت أجد في الراهبات اللواتي يحطن بي كل عطف وحنان ورقة وشعور .

واستطعت أن أكون بين الرفيقات الطالبات في المقدمة وهذا ما أهاب بالراهبات وبالمعلمات إلى احاطتي بعنايتهن ومحبتهن وعطفهن وشعورهن ..

ورحت أنتظر انتهاء الفصل المدرسي الأول لأعود إلى قصر والدي ، وأشاهد فؤاداً .

وانقضى الفصل المدرسي الأول ، إلا أنني لم أعد إلى قصر والدي ، فقد قالت لي الأم الرئيسة : إن والدك سيحضر إليك يا ابنتي . وأنتِ ستظلين هنا معنا طيلة العطلة الفصلية .

وحزنت ..

فقد كنت أريد أن أعود إلى القرية . كنت أريد أن

أخرج من ذلك المعهد الذي قضيت فيه طيلة ثلاثة أشهر كما خرجت رفيقاتي كلهن ، إلا أن أمنيتي لم تتحقق .

وأقمت في ذلك المعهد أرقب حضور والدي .

ولم يطل انتظاري . فقد أقبل والدي في اليوم التالي .

ووثبت إليه أعانقه بشوق رحيب شاسع بعيد .

وضمني والدي إلى صدره برفق وحنان وهمس في أذني : أنتِ ستخرجين معي الآن يا سلوى وستذهبين معي إلى طرابلس حيث تقضي هناك ثلاثة أيام ثم تعودين إلى هنا .

وفرحت للمفاجأة .

وأسرعت إلى ثيابي الأنيقة أرتديها لأسير برفقة والدي إلى طرابلس .

وأقمت في طرابلس مع والدي ثلاثة أيام ، فاشترى لي بعض الثياب والأغراض وذهب بي إلى منتزهات طرابلس وزرنا بعض الأماكن الأثرية .

وفي اليوم الرابع عاد بي والدي إلى المعهد ، ليعود هو إلى القرية .

أقمت في ذلك المعهد طيلة خمس سنوات كان خلالها يزورني كل ثلاثة أشهر مرة ويذهب بي تارة إلى طرابلس وطوراً إلى بيروت ثم يعود بي إلى المعهد ..

وفي العطلة الصيفية التي تمتد ثلاثة أشهر كنت أقيم في المعهد مع الراهبات ، وكانت الراهبات يذهبن بي إلى أديرتهن فنزور عدة أديرة لنعود في مطلع العام المدرسي إلى عبرين .

وألفت حياة الدير والمعهد .

وبدأت ذكرى فؤاد تتلاشى رويداً رويداً من مخيلتي . وبدأ الشوق إليه يخفّ إلا أنني كنت أشعر من حين إلى آخر بعاصفة من الشوق والحنان والحنين تغمر حنايا روحي، وكانت الذكرى تغمرني من حين إلى آخر ، فأتذكر الحقول والجدول والكرم والبستان والغابات .. وأتذكر تلك الصخرة العالية التي وقفت عليها مع فؤاد ..

إلا أن تلك الذكريات كانت تمر في خاطري كوميض البرق الخاطف ، ولا تلبث أن تتوارى عني لأعود إلى دروسي ..

وكنت قد وثبت إلى السابعة عشرة من العمر ، وبدأت أفقه معنى الحياة .

وكانت الأم الرئيسة في المعهد تحيطني بعنايتها وتنير أمامي سبيل الحياة . كانت تلك الراهبة القديسة تعطف عليّ عطفاً شديداً . كانت تحبني كما تحب الأم ابنتها وكانت تنفحني دائماً بنصائحها وبارشاداتها الغالية الثمينة .

وكانت تقول لي دائماً : « إن الله يجرب خائفيه ولكنه

لا يتخلى عنهم . إتكلي دائماً على الله عزّ وجلّ يا سلوى وثقي يا ابنتي أن الله لا يتخلى عن أولئك الذين يتكلون عليه » ..

وقد تأكدت من صدق تلك الراهبة القديسة ، عندما جربني الله وزرع في قلبي الجراح إلا أنه سبحانه وتعالى لم يتخلّ عني » .

ونفثت سلوى دخان لفافتها في الفضاء لتكمل سرد مأساتها بعد فترة صمت قصيرة فتقول : « في آخر الفصل المدرسي من السنة الخامسة لدخولي إلى ذلك المعهد جاء والدي ليقول لي : الآن ستعودين إلى والدك يا ابنتي الحبيبة . ان ما نلتيه من العلوم يكفيك يا ابنتي ، وأنا بحاجة إليكِ . ان والدك لم يعد يستطيع الابتعاد عنك ، والقصر أصبح بحاجة إلى سيدته . تعالي يا ابنتي . تعالي معي ..

وودعت الراهبات .

وقبلت يد الأم الرئيسة .

ودمعت عيناي وأنا أودعهن وتمنيت لو أن والدي يعفيني من مهمة استلام ادارة قصره ويبقيني في ذلك المعهد العمر كله.

وليت أمنيتي تلك تحققت يومذاك . ليتني أتممت العمر كله في ذلك المعهد ، ليتني أصبحت راهبة ، إذن لكنت بألف ألف خير » .

٤

« عدت مع والدي إلى المزرعة .. بعد غياب خمس سنوات .

لقد تركت المزرعة وأنا في الثانية عشرة من عمري وعدت إليها وأنا في السابعة عشرة ..

واستقبلني عمي وزوجته بالضمّ وبالعناق .

واستقبلني ابن عمي وحيد بالترحيب الشديد ..

كان وحيد قد أصبح شاباً . إلا أنه لم يتغير .. فقد ظلّ على قساوته واعتداده بنفسه ، وكبريائه ..

وعادت الذكريات تعصف بي على شدةٍ وهول وارتياع ..

ذكريات أمي ..

ذكريات الطفولة ..

ذكريات فؤاد ..

كل ما في هذا القصر كان يبعث في قلبي رياحاً عاتية من الذكريات ..

وشعرت باشتياق عظيم بالغ وعاصف إلى فؤاد ..

أين هو فؤاد ؟..

أتراه ما زال هنا في المزرعة ؟.

أتراه ما زال يذكرني ؟.

أين هو ؟. أين هو ؟.. أين هو فؤاد ؟ ؟ »

وصمتت سيدة القصر برهة راحت خلالها تستعيد في مخيلتها ذكريات تلك الأيام الآفلة الجميلة ..

كانت الدموع تترقرق في مقلتيها وتلك الذكريات تمخر عباب تفكيرها .

وخيل إليّ ، وأنا أشاهدها في غصتها وحيرتها ودموعها ، أنها تشاهد فؤاداً الآن أمام عينيها .

كانت سلوى تحدق في الفضاء وهي غرقى في تفكير صامت بارد كئيب .

وعادت إلى الكلام بعد صمت قصير لتقول :

« هاجت بي الذكريات وأنا أتذكر فؤاداً ، كان قد خيل إليّ أنني نسيته .. وأن السنوات الخمس التي قضيتها في ذلك المعهد قد محت ذكراه من فؤادي . إلا أنني كنت على خطأ ..

لقد كانت ذكرى فؤاد في صدري كالنار تحت الرماد . ما أن نفضت الرماد عنها في عودتي إلى المزرعة حتى اندلع من تلك النار لهبٌ هائل وسعير رهيب مخيف . ودخلت إلى غرفتي ، إلى تلك الغرفة التي لم أدخل إليها منذ خمس سنوات. فإذا بها كما تركتها – منذ خمس سنوات – السرير هو نفسه ذاك الذي كنت أنام فيه . والسجادة العجمية الصغيرة ما زالت ممدودة في الأرض . والستائر الحريرية ما زالت مسدلة على النوافذ كما تركتها . والخزانة هي هي .. والثريا الصغيرة المشنوقة في سقف الغرفة ما زالت معلقة كما تركتها . وصورة أمي ما زالت على المنضدة الصغيرة قرب سريري ..

كان كل شيء ما زال على حاله في تلك الغرفة ، وكأنني تركتها منذ خمس ساعات لا خمس سنوات ..

وكانت تلك الغرفة نظيفة ، كانت امرأة عمي قد أوصت الخدم بأن ينظموها قبل وصولي إلى القصر بقليل فقاموا بما أوصتهم بي خير قيام ..

وكان الخدم قد وضعوا حقائبي في أرض الغرفة ، ففتحتها ورحت أخرج منها ثيابي لأعلقها في الخزانة .

وفتحت الخزانة فإذا ببعض ثيابي القديمة الصغيرة ما زالت معلقة في تلك الخزانة ، كما تركتها منذ خمس سنوات .. هذا « المريول » كنت أرتديه يوم ألقى بي ابن عمي وحيد في الجدول .. وهذا الثوب كنت أرتديه يوم جلست قرب فؤاد فوق الأعشاب عند ضفة الجدول .. وهذا المعطف كنت أرتديه يوم سرت مع فؤاد في الغابة الخضراء وقد علقت الأشواك في طرفه وهشمته .. ان أثر الأشواك ما زال ظاهراً في طرف ذلك المعطف ..

وعصفت بي الذكريات من جديد ، وأنا أشاهد تلك الثياب القديمة .

ودمعت عيناي ..

ورحت أعلق ثيابي في الخزانة والدموع تتدحرج على وجنتي .

وعندما انتهيت من ترتيب ثيابي استلقيت على سريري لأفرغ كل ما في عيني من دموع ..

لماذا كنت أبكي ؟ أنا نفسي لا أعلم لماذا .

وطال انزوائي في تلك الغرفة ..

واستغرقت في نوم هادىء عميق ..

ولم أستفق إلا على صوت امرأة عمي تناديني : سلوى ! سلوى !..

واستفقت ..

واستويت في السرير ، فاقتربت امرأة عمي مني لتقول :

ـ : انهضي يا ابنتي . ان بنات ونساء الفلاحين جئن ليرحبن بك .

ووثبت من السرير وارتديت ثيابي على عجل وخرجت مع امرأة عمي إلى البهو .

كانت نساء الفلاحين وبناتهن في البهو .. كلهن جئن للترحيب بي .

وتعرفت إلى البعض منهن أما البعض الآخر فلم تسعفني الذاكرة في التعرف إليه .

وبحثت بينهن عن أم فؤاد فلم أجدها .. لم تكن أم فؤاد معهن .. أين هي !

وسألت إحدى الفلاحات عنها .. فأجابت .

ووجمت ، وأنا أسمع الجواب . قالت الفلاحة :

ـ : مسكينة أم فؤاد !. لقد رحلت عن هذا العالم الفاني منذ ثلاث سنوات .

وشعرت بعاصفة من الحزن العميق تغمر روحي وأنا أقف على نبأ موت أم فؤاد .

لقد كانت المرحومة تحبني وتعطف عليّ . وأنا ما زلت أذكر كيف غمرتني بعطفها وبحنانها يوم رحلت أمي عن هذه الفانية وكيف كانت تعاملني معاملة الأم لأبنتها ..

وسألت : كيف ماتت أم فؤاد وقد كانت العافية ملء بُرْدَيْها ؟

وقالت إحدى الفلاحات : « لقد ماتت بعد أن أصيبت بنوبة قلبية لم تمهلها سوى ساعات قليلة .. فلتكوني يا أبنتي وارثة عمرها . »

وقالت فلاحة ثانية : « والغريب أن زوجها أبا فؤاد مات أيضاً بعد سنة من موت زوجته بنفس الداء . نوبة قلبية لم تمهله سوى ساعات قليلة . »

واشتد بي الوجوم . وهمست : أبو فؤاد أيضاً مات ؟

قلن : رحمه الله . وعوّضنا الله بسلامتك يا ابنتي .

وكدت أسألهن : « وفؤاد ؟ أين هو ؟.. ومـاذا حلّ به ؟.. » إلا أن بقية من الكبرياء في نفسي أبت عليّ طرح مثل هذا السؤال على الفلاحات ..

إلا أنني علمت في اليوم التالي أن فؤاداً ما زال في المزرعة وأنه يتولى نفس العمل الذي كان يقوم به أبوه ..

كان يزرع الحقل المترامي الأطراف ويهتم بالكرم .. ويقتسم « الغلة » بينه وبين والدي وعمّي ..

* * *

مضى عليّ يومان في المزرعة دون أن أشاهد فؤاداً ..

ولم أخرج من القصر خلال هذين اليومين بل كنت أقضي كل وقتي في استقبال الأقارب والأهل والأصدقاء والفلاحين الذين كانوا يزوروننا للترحيب بي ..

وفي اليوم الثالث خرجت من القصر ، خرجت منه في الساعة التاسعة من الصباح وسرت إلى ذلك الجدول الذي كنت أجلس دائماً على ضفافه مع فؤاد .

لقد سرتُ في ذات الطريق الذي كنت أسير فيه منذ خمس سنوات .

ذلك الطريق الضيق الملتوي الذي تحيط به الأشجار الوارفة الخضراء ..

وشعرت بالارتياح وأنا أجتاز ذلك الطريق. شعرت بأنني ما زلت كما كنت منذ خمس سنوات .

كأنني لم أغب طيلة سنوات خمس عن تلك الربوع ..

فقد خيل إليّ إنني اجتزت ذلك الطريق بالأمس ..

ووصلت إلى الجدول ..

كل شيء باقٍ على حاله ..

هنا كنت أجلس مع فؤاد ..

وهناك كنا نسير ..

وهذه الأغصان الوارفة الخضراء كانت تظللنا وتحجبنا عن كل عين ..

وهنا ألتقى بي ابن عمي وحيد في الجدول ..

يا لها من ذكريات هانئة باسمة جميلة حلوة .

وجلست فوق تلك الأعشاب .

وتمددت ..

ورحت أستعيد في مخيلتي ذكريات الماضي الآفل الجميل ..

وكان جلوسي فوق تلك الأعشاب عند ضفة الجدول ..

وعند الظهر عدت إلى القصر ، وأنا في حالة غامضة . لم أكن حزينة ولم أكن فرحى ..

كنت اريد أن أفرح وأريد أن أحزن ، أريد أن أبكي وأريد أن أبتسم، لكنني لا أستطيع ..

وتمنيت لو أنني أشاهد فؤاداً .

فأنا أريد أن أراه . ولكن ...

ولكن هل يجوز لي ، وأنا ابنة صاحب هذا القصر أن أتحدث إلى فلاح مثل فؤاد ؟..

كنت قد بدأت أفقه معنى الحياة وأدرك أي مقامٍ هو مقامي وأي مقام هو مقام فؤاد .

فأنا لم أعد طفلة . لم أعد أجهل أسرار هذه الحياة وخفاياها وأحاجيها ..

وتمنيّت للمرة الأولى في حياتي لو أنني فقيرة .

ووصلت إلى القصر .. ودخلت إلى غرفتي لأجلس على سريري وأنصرف إلى التفكير .. وطافت في رأسي الأفكار وكدت أضيع بين أفكاري، ولم ألبث أن نهضت لأتناول طعام الغداء مع والدي وعمي وامرأة عمي وابنها وحيد .. ثم أعود إلى غرفتي .. كنت أريد أن أخلو بنفسي لأفكر بفؤاد .. كنت أريد أن أتخذ قراراً : هل يجوز لي أن أتحدث إلى فؤاد أم لا ؟..

وطال تفكيري ، وطال عذابي وطال جلوسي في تلك الغرفة دون أن أستطيع الوصول إلى قرار حاسم جازم نهائي .

واستلقيت على السرير واستغرقت في نوم هادىء عميق ..

وعندما استفقت من نومي كانت الساعة قد بدأت تشير إلى الخامسة من المساء ..

وخرجت من الغرفة إلى الشرفة .

كان والدي جالساً على الشرفة مع بعض الأصدقاء ..

فجلست بينهم .. إلا أنني لم أجلس طويلاً . فقد نهضت بعد دقائق قليلة لأخرج من القصر إلى الحديقة .

ومن الحديقة خرجت إلى الطريق العام ، وأنا لا أعلم إلى أين أسير ولا إلى أين أتجه .

وقادتني قدماي إلى طريق الغابة فسرت ..

سرت دون أن أدري إلى أين أسير .

وما إن توغلت في الغابة وابتعدت عن القصر ، واقتربت من تلك الصخرة الناتئة العالية التي تشرف على الوادي السحيق، حتى دوى في أذني صوت قوي ينادي : يا سلوى .. يا سلـ .. وى .. يا سلوى .

وعرفت الصوت ..

انه صوت فؤاد ..

فؤاد يناديني ..

وتذكرت وقفتي معه منذ خمس سنوات فوق تلك الصخرة

عندما رحت أناديه وراح هو يناديني فتردد الجبال والوديان والربى والوهاد صدى صوتنا لحناً شجياً خالداً .

وأخذت أعدو فوق الصخور والأشواك نحو تلك الصخرة العالية الجاثمة بكل هناء وسلام واطمئنان على قمة الربوة العالية الخضراء .

كنت أعدو فوق الصخور والأشواك بسرعة فائقة ويخيّل إليّ انني واقفة ..

وتمنيت لو أنني أحمل جناحين لأطير بهما إلى فؤاد .

في تلك اللحظة اندلع الشوق في قلبي دفعة واحدة .

في تلك اللحظة أدركت أنني ما زلت أحب فؤاداً ، وأن نار الحب في قلبي كانت خامدة تحت الرماد .

واقتربتُ من تلك الصخرة العالية ..

وشاهدت فؤاداً واقفاً فوقها وهو ينظر إلى الشمس المتأهبة إلى الانحدار وراء الأفق البعيد وينادي : يا سلوى !.

كان نور الشمس الأصفر المخضب بلون الغروب الوردي يغمر تلك الربى والتلال ليزيد جمالها جمالاً ، وعظمتها عظمة ، وخشوعها خشوعاً .

وكان نور المغيب يغمر فؤاداً بلونه الجميل ، ونـــائم

الغروب تتلاعب بشعره ، وهو واقف فوق الصخرة العاتية ينادي : يا سلوى ؟.

واقتربت منه على مهل ، والدموع تجول في عيني ..

ولاح لي فؤاد شاباً كامل الرجولة ..

لقد تركته منذ خمس سنوات فتى أقرب إلى الطفولة منه إلى الشباب وها أنا ألقاه اليوم شاباً طويل القامة عريض المنكبين ، أجش الصوت على عذوبة ورقة وجمال .

ولم ينتبه فؤاد إليّ وأنا أقترب منه ..

وأصبحت على بعد أمتار قليلة من الصخرة دون أن لتفت إليّ .

وشاهدت وجهه عن كثب ..

كان كل ما في وجه فؤاد قد تغير واتسم بسمة الرجولة ، إلا أن عينيه كانتا كما تركتهما منذ خمس سنوات ..

عيناه فقط لم تمتد يد السنوات الخمس إليها .

كان ذلك الوميض الجميل ما زال يتقد في عينيه وذلك الشعاع البهي يسطع فيهما .

وشاهدت الدموع تموج في عينيه ..

نفس الدموع التي غمرت عينيّ غمرت عيني فؤاد ..

ووقفت عند أقدام الصخرة ...

كان فؤاد واقفاً فوق الصخرة ، وأنا واقفة عند أقدامها .

وطالت وقفتي دقائق ..

وفجأة التفت فؤاد إلى الوراء ..

وشاهدني فارتسمت الدهشة في عينيه المغمورتين بالدموع.. وعقد لسانه ..

وخيل إليّ أنه يريد الكلام إلا أن الكلمات كانت تختنق في صدره وتتكسر على شفتيه ..

وشعرتُ بقوة هائلة رهيبة تدفعني إليه ..

وحاولت تسلق الصخرة ، فمد فؤاد يده إليّ وساعدني على التسلق .

وهناك فوق تلك الصخرة العالية العاتية التي تشرف على الوادي السحيق البعيد فتح لي فؤاد ذراعيه فارتميت بين الذراعين المفتوحتين وأجهشنا بالبكاء ..

أنا أبكي .. وفؤاد يبكي ..

ولم نستطع أن نتلفظ بكلمة ولا أن نهمس بحرف ..

لا أنا استطعت الكلام ولا فؤاد .

كانت العبرات والدموع تخنق كلماتنا .

وكانت تلك الدموع أبلغ حديث فهمته روحانا وأحسه قلبانا ..

وطالت وقفتنا فوق تلك الصخرة . أنا على صدره ويداه تحيطان بجسدي وتشدان بي إليه .

ونسينا أننا لم نجتمع منذ خمس سنوات ..

لقد خيل إلينا أننا افترقنا منذ ساعات قليلة ..

لقد شعرت أنني ما زلت سلوى الصغيرة التي تحب فؤاداً . وشعر فؤاد أيضاً أنه ما زال ذلك الطفل الذي يحب سلوى ويريد أن يحميها ويدفع عنها كل أذى ..

وأخيراً وبعد صمت طويل تناولت منديلي من جيبي لأمسح به دموع فؤاد .

وهمس فؤاد كلمة .. كلمة واحدة : سلوى !.

وهمست أنا : فؤاد !.

وتمتم : كنت على يقين من أننا سنجتمع يا سلوى .

ـ وأنا أيضاً كنت متيقنة من اجتماعنا يا فؤاد . منذ خمس سنوات وأنا انتظر هذا اللقاء.

ـ : منذ خمس سنوات وأنتِ تعيشين في خاطري حلماً رائعاً فاتناً جميلاً ! منذ سنوات خمس لم يغب طيفك عن

عيني دقيقة واحدة . كنتِ وما زلتِ تعيشين قربي يا سلوى.

ـ : صحيح يا فؤاد ؟

ـ : سلي قلبك ينبئك الخبر اليقين .. أتذكرين ذلك المساء الذي وقفنا فيه هنا على هذه الصخرة منذ خمس سنوات يا سلوى ؟. أتذكرين ذلك المساء يوم ردد الصدى البعيد صوتينا ونحن ننادي : « يا فؤاد !.. يا سلوى !. » منذ ذلك المساء وهذه الربوع ، هذه الوديان والربى تسمع صوتي ، وأنا أنادي سلواي كل مساء .

قلت ، وأنا أطوق عنقه بيدي : وستظل هذه الربوع تردد صوتينا يا فؤاد حتى يخمد الموت الصوتين . سنظل معاً حتى الموت ، حتى الموت يا فؤاد .

وعادت الدموع تموج في عينيه . ولاذ بالصمت، وراح يحدق بالأفق البعيد البعيد من خلال دموعه التي بدأت تتأهب للانحدار على وجنتيه السمراوين الجميلتين ..

وفجأة ابتعد فؤاد عني كأنه أصيب بلسعة أو بصفعة ..

وقفز عن الصخرة ، وراح يعدو فوق الصخور والأشواك في طريقه إلى المزرعة ..

ودهشت : لماذا يهرب فؤاد مني ؟. ماذا أصابه ؟.

ورحت اناديه : يا فؤاد !.. يا فؤاد !.. يا فؤاد !..

إلا أنه لم يجب ، ولم يلتفت إليّ .

ومضى في عدوه وفي ركضه كأنه يريد أن يهرب من شبح يلاحقه ..

وكانت الجبال والوديان تردد صدى صوتي : « يا فؤاد » ، وتعيده إليّ لحناً حنوناً شجياً حزيناً ..

وقفزت عن الصخرة ..

وسرت في الطريق الطويل ، البعيد، الضيق ، الذي تظلله أغصان العفص والسرو والشربين والسنديان والصنوبر وأنا أفكر بألم وشجن .

وتردد في خاطري سؤال لم أستطع أن أجيب عليه : لماذا يهرب فؤاد مني ؟. لماذا انسلخ عني وأسرع بالهرب ؟. لماذا؟. لماذا ؟. لماذا ؟.

وظل هذا السؤال يتردد في خاطري ..

وعندما آويت إلى سريري في الساعة العاشرة من الليل عاد السؤال يتردد في خاطري : لماذا هرب فؤاد مني ؟

ولم أستطع أن أجيب على هذا السؤال ..

وشعرت بآلام نفسية مبرحة ..

لقد شعرت بضيق في صدري ، وبحزن عميق يغمر روحي ، وقد عجزت عن رد الجواب على سؤالي ذاك .

ولم استطع أن استسلم للرقاد إلا وأنوار الفجر البعيد تتسرب عبر زجاج النافذة إلى غرفتي .

واستغرقت في نوم هادىء عميق ..

ولم استفق من النوم إلا والساعة تشير إلى العاشرة من الصباح ..

وقفزت من السرير لأغسل وجهي وأرتدي ثيابي وأخرج إلى الشرفة .

كانت امرأة عمي جالسة على الشرفة تحيك الصوف بصنارتيها . وألقيت عليها التحية فابتسمت لي وتمتمت :

— : لم أشأ أن أوقظك يا ابنتي وأنا أعلم أنك تشتاقين النوم صباحاً بعد أن مضت عليك سنوات خمس في المعهد وأنت تستفيقين مع الفجر .

وهمست : شكراً يا امرأة عمي ..

— : أريدك أن تناديني : « يا أمي » ، أنا الآن بمثابة أمك يا سلوى يا ابنتي .

— : كما تريدين يا امرأة عمي .

فضحكتْ وقالت : يا ماما .. وليس يا امرأة عمي .

— : يا ماما ..

وكانت تلك المرة هي المرة الأولى التي ألفظ فيها هذه الكلمة بعد موت أمي ..

ولذلك فقد ترقرقت الدموع في عيني عندما تلفظت بهذه الكلمة المقدسة ..

ولم أعد أتلفظ بها قط منذ ذلك اليوم ..

فأنا لم أكن أريد أن تقع هذه الكلمة الحنون من شفتي في أذن بعد أن توارت أذن أمي وراء الضريح، إلا أن امرأة عمي ظلت تناديني : « يا ابنتي » .

كانت تلك المرأة الطاهرة النبيلة تغدق علي عطفها ومحبتها وحنانها ، وهي تحاول أن تعوّض علي حنان أمي وعطفهـــا وحنينها .

ودعتني امرأة عمي للجلوس قربها فجلست .

ولم تلبث أن جاءتنا الخادمة بالقهوة فأخذت أرشفها على مهل مع امرأة عمي ..

وأخذت امرأة عمي تحدثني وتطرح علي بعض الأسئلة : « كيف كنت تعيشين في المعهد ؟. هل كنت مرتاحة ؟. هل كان هناك من يزعجك أو يضايقك ؟ » .

وكنت أجيبها على أسئلتها بكل صراحة .

ورحت أروي لهـــا بعض الحوادث التي وقعت لي في المعهد ..

وطالت جلستنا على الشرفة حتى الظهر ..

وعندئذ نهضت امرأة عمي لتقول : لقد اقترب موعـــد الغداء . سأدخل إلى المطبخ لأشرف بنفسي على إنجاز الطعام .

ونهضت أنا لأقول : وأنا سأساعدك أيضاً .

فابتسمت ، وهمست : لا بأس .. ادخلي إلى قاعة الطعام وأعدّي المائدة .

ودخلت إلى قاعة الطعام وانصرفت إلى إعداد المائدة ..

ولم يلبث أن جاء والدي ثم جاء عمي وجـاء وحيد ابن عمي ..

وجلسنا حول المائدة نتناول الطعام .. وعندما انتهينا من ذلك خرجنا إلى الشرفة ..

كنت قلقة مضطربة ..

ولم أكن أعلم ما هو السبب ..

وكثيراً ما يشعر الانسان بأنه قلق الخاطر ، مضطرب الفؤاد ، دون أن يعلم ما هو السبب .

فكأن الحاسة السادسة التي يقولون إنها كامنة في روح

الانسان ، هي التي تثير قلقه منذرةً إياه بحدوث حدث أو بوقوع كارثة ..

وقضيت طيلة بعد الظهر في القصر دون أن أخرج منه .

وكنت عازمة على الذهاب إلى الربوة العالية الخضراء في المساء لمشاهدة فؤاد ..

فكأنني كنت على يقين من أن فؤاداً سيكون هناك ..

ومرت الساعات ثقيلة باردة بطيئة على قلبي ..

وجلست أطالع كتاباً فرنسياً ..

وكنت أرفع نظري عن الكتاب من حين إلى آخر ، لأرمق الساعة المشدودة إلى معصمي بنظرة سريعة وأنا أتأفف وأتبرم : الساعة الآن تشير إلى الثانية .. إلى الثانية والنصف .. إلى الثالثة .. إلى الثالثة والنصف .. إلى الرابعة .. اوه .. ما زال الوقت يبعدني عن لقاء فؤاد .. أمامي ساعة .. فؤاد لن يكون هناك قبل الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف .. ما أطول هذه الساعة ..

إلا أن الساعة انقضت ..

وبدأ عقربا الساعة الصغيرة المشدودة إلى معصمي يشيران إلى الخامسة .. فنهضت لأخرج من القصر متجهة نحو الربوة الخضراء وأنا أعلل النفس بمشاهدة فؤاد .

ووصلت إلى الربوة الحالمة ، وقد خيّل إليّ أنني سأجد فؤاداً في انتظاري .

إلا أنني دهشت عندما وصلت إلى هناك ولم أجد أحداً .

كانت الشمس تقف على شرفة الأفق البعيد الفسيح الأرجاء متأهبة للانحدار إلى ما وراء الفضاء .

وكان ذوبها الأحمر يخضب الأفق وينسكب على الوهاد والتلال والجبال والوديان وشاحاً أحمر رائع الألوان .

وتسلقتُ الصخرة العالية .

وجلست فوقها أنتظر حضور فؤاد .

إلا أن انتظاري طال دون أن يلوح لفؤاد أي أثر ..

وبدأت الشمس تتدحرج وراء الأفق وفؤاد لم يطل .

وبدأ الأمل يتدحرج في قلبي مع الشمس الغائبة عن عيني .

وعندما توارت الشمس عن عيني خبا ذلك الأمل في قلبي وأدركت أن فؤاداً لن يحضر ..

وبدأ الظلام يزحف ، وقد توارت الشمس ، ليغمر تلك الربوع بوشاحه الأسود الكثيف .

وبدأت النجوم تتلألأ في الفضاء فشعرت بالوحدة الباردة الصمّاء تغمر حنايا قلبي وروحي ..

ونهضت لأجر رجليّ جراً في عودتي إلى القصر ..

وضاقت أنفاسي في صدري ، وقد وصلت إلى القصر وأدركت أنني لن أشاهد فؤاداً .

ودخلت تواً إلى غرفتي لأقعد في سريري وأنصرف إلى التفكير بحرقة وغصة ومرارة ..

وتذكرت ما كان من فؤاد في الليلة السابقة .

تذكرت كيف هرب مني وراح يعدو فوق الصخور والأشواك كأنه يريد أن يبتعد عن خطر داهم شديد ..

وعاد ذلك السؤال يتردد في خاطري من جديد : لماذا يهرب فؤاد مني ؟.

ولم أستطع أن أجيب على هذا السؤال .

ولم أخرج من غرفتي تلك الليلة .

وعندما جاءت امرأة عمي تدعوني لتناول الطعام قلت لها : أنا لست جائعة يا « تانت » أريد أن أنام .

وقلقت امرأة عمي شديد القلق ووثبت إليّ تجس نبضي وتتجسس جبهتي بكفها وتسألني : ما بك يا سلوى ؟ هل أنت مريضة ؟

ـ لا ، ولكنني تعبة . أريد أن أنام .

ـ ألا تتناولين بعض الأثمار ؟

ـ لا ، شكراً . أريد أن أنام .

وخرجت امرأة عمي ، وقد خيل إليها أن السير في الأحراج أنهك قواي ، وآمنت بما قلت . وخيل إليها أنني أريد فعلاً أن أنام ..

ولم أنم ، لم أستطع أن أغمض عيني .

لقد ظللت ساهرة أتقلب في سريري وأنا أفكر بفؤاد ..

وطال تفكيري .

وطال سهري .

وطال سهدي حتى مطلع الفجر البعيد ..

واستطعت أن أستسلم لسلطان الكرى ، وخيوط الفجر تنسج ثوب الصباح .

إلا أن نومي لم يطل .

فقد استفقت من النوم في الساعة السابعة من الصباح ..

وجاءت امرأة عمي تدعوني لتناول القهوة على الشرفة ..

وارتديت ثيابي وخرجت إلى الشرفة لأجد والدي بانتظاري .

واستقبلني والدي بابتسامة رضا وارتياح وهمس :

ـ : لقد أقلقتِ خاطري عليك يا ابنتي . لماذا لم تتناولي طعام العشاء معنا ليلة أمس ؟

ـ كنت متعبة يا والدي .

وتدخلت امرأة عمي لتقول : يبدو أنها أسرفت في المسير أمس فتعبت . إن سلوى قضت خمس سنوات داخل جدران المعهد دون أن تسير مسافة طويلة ، لذلك فهي الآن لا تستطيع أن تسير المسافات الطوال .

وأنقذت امرأة عمي الموقف وآمن والدي بكلامها ..

ورشفتُ القهوة على مهل وأنا أفكر ..

ولم يلبث أن نهض والدي ليخرج من القصر .

ودخلت امرأة عمي إلى المطبخ لتشرف بنفسها على تهيئة الطعام .

وبقيت وحدي على الشرفة أنظر إلى تلك الوهاد المنخفضة وإلى تلك الجبال المرتفعة والى الربى المنبسطة الخضراء وأفكر .

وعاد السؤال يتجاوب في صدري : لماذا هرب فؤاد مني؟

وعزمتُ على أن أعود في المساء إلى الربوة العالية وأنا أعلل النفس بمشاهدة فؤاد ..

إن فؤاداً سيحضر في المساء إلى الربوة العالية .

منذ خمس سنوات وهو يشخص كل ليلة إلى تلك الربوة ويتسلق الصخرة العالية وينادي : « يا سلوى ا. » فلماذا لم يحضر مساء امس؟. وهل تراه سيحضر هذا المساء ؟

لست أدري .. لست أدري ..

وتكاثرت وتعددت الأفكار في رأسي . وكانت أفكاري كسفينة تائهة في عرض البحار تتقاذفها الأمواج وتلعب بها الرياح العاتية الهوجاء ..

ولم أعلم كيف انقضى ذلك النهار .

لم أعلم كيف انقضت الساعات الباردة الثقيلة السوداء .

كان ذلك النهار أطول نهار مرّ عليّ في حياتي ..

وأطل المساء فإذا بي أشخص إلى الربوة وأنا أعلل النفس بمشاهدة فؤاد .

إلا إن حظي تلك الليلة لم يكن بأفضل منه في الليلة السابقة ..

لم يحضر فؤاد ..

ولم أرَ له وجهاً .

وشعرتُ بحاجة قصوى إلى البكاء .. وبكيت ...

وتدحرجت دموعي غزيرة على وجنتي ، وأنا أقف فوق تلك الصخرة العالية أحدّق بالشمس وهي تتدحرج إلى ما وراء الأفق البعيد مفسحة لظلام الليل الطريق إلى تلك الربوع ..

وعدت إلى القصر على ألم وشجن ودمع وشوق وحنين ..

وتكرر الموقف ثلاث ليال ..

كل مساء أشخص إلى الربوة الخضراء آملة أن أرى فؤاد ، وكل ليلة أعود إلى القصر والدموع في عيني والسؤال يتردد في خاطري دون جواب : لماذا يهرب فؤاد مني ؟..

وفي اليوم الرابع اتضح لي كل شيء ..

وعلمت لماذا يهرب فؤاد مني ..

لقد استطعت أخيراً أن أجيب على السؤال ..

فقد شاهدت منظراً أرعبني وأخافني ورفع الغمامة السوداء عن عينيّ المغمورتين بالدموع ..

لقد علمت أخيراً لماذا يهرب مني فؤاد .

وكان ذلك في صباح اليوم الرابع .

في ذلك اليوم ، استفقت في ساعة مبكرة من الصباح، على غير عادتي .

لم أكن قد استطعت النوم طيلة ذلك الليل .

لم أنم تلك الليلة سوى زهاء ساعة واحدة ، من الساعة الخامسة حتى الساعة السادسة .

ونهضت من السرير في الساعة السادسة من الصباح .

وخرجت من غرفتي إلى الشرفة .

ولم يكن ثمة أحد هناك على الشرفة .

كان والدي وعمي وزوجته ما زالوا يغطون في نومهم .

وكان الصباح قد نشر وشاحه الأبيض الجميل على جبال لبنان ووديانه وتلاله .

وكانت الشمس قد بدأت تكلّل قمم الجبال الشاهقة العالية بتاجها الذهبي اللامع ، والطيور تتنقل فوق أغصان الأشجار الخضراء ، مشنفة آذان الصباح بأناشيدها الشجية السمحاء ، والفلاحون بدأوا يخرجون من أكواخهم ومن منازلهم إلى الحقول والبساتين .

وكل شيء هادىء ساكن في المزرعة الباسمة الخضراء ..

وفجأة شاهدت ابن عمي وحيداً يخرج من القصر إلى الحديقة مرتدياً ثياب الصيد حاملاً بندقيته وجعبته .

وإذا بثلاثة شبان من أصدقاء ابن عمي يصلون إلى الحديقة وهم يمتطون صهوات خيولهم ويرتدون ثياب الصيد ، فأدركت

أن ابن عمي سيشخص إلى أعالي الجبل الشرقي لاصطياد الطيور لا سيا الحجال ، مع اصدقائه ..

وإذا بفؤاد يخرج من الاسطبل وهو يقود جواد ابن عمي .

وتقدم ابن عمي وحيد من الجواد ..

وانحنى فؤاد أمام ابن عمي ليجعل من ظهره سلماً ..

ووثب فريد إلى ظهر فؤاد فداسه ليصل إلى صهوة الجواد ..

وذعرت وأنا أشاهد هذا المشهد الرهيب .

وحيد يمتهن كرامة الإنسان !!

إنه ليذل فؤاداً فيدوس ظهره ليصل إلى صهوة جواده ، فلا يفرق بين الحيوان والإنسان .

يا له من ظالم كافر لئيم ...

وانطلقت الجياد بالصيادين الأربعة في طريق الجبل الشرقي ، وهم يقهقهون ويضحكون .

ووقف فؤاد يشيعهم بنظرات ألم وشجن وأسى والدموع تغمر عينيه ...

وعندما اختفت الجياد بالصيادين بين الأشجار الوارفة الخضراء عاد فؤاد إلى الاسطبل ..

وشعرت بقوة هائلة رهيبة تدفع بي ، فأسرعت بالخروج من القصر ...

وعدوت نحو الاسطبل والثورة اللاهبة تعصف بي والدموع تموج في عيني ..

ودخلت إلى الاسطبل لأجد فؤاداً هناك يقوم بتنظيف الاسطبل .

وشاهدت في زاوية من زوايا الاسطبل الواسع الفسيح فراشاً ممدوداً في الأرض ومقعداً خشبياً محطماً .

وكانت ثياب فؤاد معلقة في الحائط ..

واشتد بي الذعر وقد أدركت أن فؤاداً ينام هناك في الاسطبل ..

وتقدمت منه بخطوات واهية مرتجفة .

ووجم فؤاد ، وهو يشاهدني أدخل إلى الاسطبل والذعر يطل من عيني ..

ومرّت لحظات قليلة دون أن يستطيع أحدنا أن يمس بحرف ..

فلا فؤاد تكلم ولا أنا .

كان كل منا ينظر إلى الآخر من خلال دموعه المتأهبة للانحدار على وجنتيه دون أن ينبس بكلمة ..

وعدت إلى التقدم من فؤاد ..

ووقفت قربه لأهمس : فؤاد . لماذا تنام هنا ؟

ولمعت عيناه ، من خلال دموعه ببريق غريب ، فيه مزيج من الحقد والغضب والثورة والأسى والحنان .

وهمس : لماذا جئتِ إلى هنا ؟ عودي من حيث أتيتِ .

— : لا .. لن أعود قبل أن أعلم لماذا تركت منزلكم لتأوي إلى هذا الاسطبل ؟ لماذا يا فؤاد ؟ لماذا ؟

وابتعد فؤاد قليلاً عني وأدار لي ظهره قائلاً : أخرجي من هنا . اخرجي من هنا ...

وعدت إلى الاقتراب منه لأهمس : لماذا يا فؤاد ؟ لماذا تركت المنزل ؟.

فصرخ : ابتعدي عني ... أخرجي من هنا ..

— : لن أخرج من هنا قبل أن أعلم كل شيء .. كل شيء يا فؤاد .

وصمت فؤاد ..

وعدت إلى الاقتراب منه . ووضعت يدي على كتفه هامسة ، .

— : ألا تريد أن تخبرني كل شيء يا فؤاد ؟ . أأكون غريبة عنك ؟ ألست أنا صديقتك الوفية سلوى ؟ هل نسيت

كل ما كان بيننا يا فؤاد ؟.

فعاد فؤاد يعتصم بالصمت ، ويدير لي ظهره .

كانت الدموع تترقرق في عينيه .

وكان يضن عليّ برأى دموعه .

لم يكن فؤاد يريد أن أشاهده في دمعه وفي حزنه وفي ألمه .

وأبَيت أن أبتعد عنه .

أبيت أن أخرج من الاسطبل قبل أن أقف على الحقيقة .

لقد أدركت أن هناك أحداثاً هامة حصلت في تلك المزرعة خلال السنوات الخمس التي قضيتها في المعهد بعيدة عن تلك الربوع .

وعزمت على أن أقف على كل شيء ..

لقد علمت ساعتئذ لماذا كان فؤاد يهرب مني ..

كان فؤاد يدرك أي وهدة عميقة الغور تفصل بين مقامي ومقامه .

هو ابن الاسطبل وأنا ابنة القصر .

لذلك فقد أراد أن يهرب مني لئلا يسيء اليّ ..

واقتربت من المقعد الخشبي الخلع وجلست عليه ..

والتفت فؤاد إليّ وهمس :

ـ : لا .. لا .. لا تجلسي هنا . اخرجي من هنا .. ابتعدي. أرجوك لا تعذبيني، لا تسحقي قلبي، لا تحرقي روحي أرجوك . أرجوك .

ـ : لن أخرج من هنا إلا وقد وقفت على كل شيء. تعال، تعال يا فؤاد تعال ، اقترب مني . أخبرني ، ماذا حدث ؟

فاقترب مني على ذعر ووجوم ليقول : اخرجي من هنا قبل أن يراك أحد .. إذا رأوك هنا ذبحوك وذبحوني من الوريد للوريد .

فدهشت . ماذا يقول فؤاد ؟ هل جُنّ ؟

والتفتّ إلى فؤاد لأقول : من هم الذين سيذبحونك ويذبحونني إذا شاهدوني هنا ؟..

وعاد فؤاد إلى الصمت يعتصم به ..

فهو لم يجب بحرف .

لم ينبس بكلمة .

وعدت أنا إلى الاقتراب منه لأقول باستعطاف وتوسل :

ـ : فؤاد !.. قل لي ماذا حدث ؟.. قل لي كل شيء.. لماذا انتقلت من منزلكم إلى هنا ؟.. ولماذا تخاف أن يذبحوني ويذبحوك ؟.. ما هي هذه الأحاجي والأسرار يا فؤاد ؟..

ومضى فؤاد في صمته البارد الموحش الكئيب ...

وشاهدت دمعتين تترقرقان في مقلتيه فعدت إلى الاقتراب منه لأمسك بيده وأهمس في أذنه : فؤاد !.. لم تكن لتخفي عني سراً يوم كنا معاً في هذه الربوع قبل أن أدخل إلى المعهد . منذ خمس سنوات مضت كنت تطلعني على كل ما في قلبك من أسرار ، فما بالك اليوم تحاول أن تخفيها ؟

فتمتمت شفتاه دون أن يلتفت إليّ :

ـ : اليوم هو غير الأمس يا « مدموازل » سلوى .

ـ : وهل تغيرت الأيام يا فؤاد ؟

ـ : لا .. الأيام لم تتغير . نحن الذين تغيرنا .

ـ : كيف ؟.. كيف يا فؤاد ؟

ـ : بالأمس ، يوم كنا نلعب معاً ونتحدث ونضحك ونغزو الأحراج والوديان والتلال كنا صغاراً . ولم نكن نفقه معنى الحياة . لم نكن نعلم يا « مدموازل » سلوى يومذاك أن في الدنيا أغنياء وفقراء ، وأن فيها مقامات ومراكز . لم نكن نعلم يومذاك أي وهدة عميقة تفصل بين الغني والفقير ولا أي بحر هائل رهيب يفصل بين ابنة القصر وابن الكوخ .

فأمسكت بيده أشدها بعطف وحنان لأقول :

ـ : فؤاد ! لا تفكر بمثل هذه الأمور . ليس ثمة ما

يفصلني عنك ، لا مال ولا مركز ولا مقام. أنا ما زلت كما أنا وأرجو أن تظل كما أنت .

— : لا يا « مدموازل » سلوى . لا أنا أستطيع أن أظل كما كنت ، ولا أنت .

فاحتضنت يداي يده الباردة المرتجفة لأهمس : تعال يا فؤاد . تعال أخبرني كل شيء .

فأفلتت يده من يدي وهمس :

— : لا . لا . لا استطيع لا استطيع .

— : لماذا يافؤاد ؟

فعاد إلى التمتمة : أرجوكِ أن تبتعدي عني . أخرجي من هنا قبل أن يشاهدك أحد .

فأبيت أن أنزل عند طلبه وإلحاحه ، وعدت إلى الجلوس على المقعد الخشبي الخلع لأقول بحزم وعزم وثبات :

— : لن أخرج من هنا قبل أن أقف منك على كل شيء .

ولمع الخوف جلياً في عينيه وهمس :

— : أرجوكِ أن تخرجي الآن حالاً من هنا .

— : أريد أن أقف على كل ما جرى في غيابي .

— : سأطلعك على كل شيء ولكن ليس الآن . ليس الآن يا « مدموازل » سلوى ولا هنا .

— : متى وأين إذن ؟

— : هذا المساء . سأراكِ هناك في الغابة الخضراء ، في الربوة العالية عند الصخرة الوادعة التي تشرف على الوادي . سنجتمع هناك وأطلعك على كل شيء .

فنهضت عن المقعد الخشبي الخلع لأقول : سأكون بانتظارك هناك اذن .

— : وسأوافيك في الموعد المضروب يا « مدموازل » سلوى .

— : فؤاد ا... دعك من كلمة «مدموازل» هذه ، نادني يا سلوى ، كما كنت تناديني منذ خمس سنوات .

فابتعد عني وأدار ظهره وأخفى وجهه بين يديه متمتماً :

— : أخرجي من هنا ، أخرجي من هنا الآن حالاً .

ونزلت عند طلبه هذه المرة وخرجت .

خرجت ، وأنا أجر رجلي جراً إلى الحديقة .

ومن الحديقة دخلت إلى القصر .

كان الخدم قد استفاقوا وبدأوا أعمالهم ، أما والدي وعمي وزوجته فكانوا لا يزالون يغطون في النوم .

واتجهت إلى الشرفة لأجلس على مقعد رجراج وثير وأنا

أفكر وأمتع نظري بمناظر هذه الجبال والوديان والتلال الغارقة في أنوار الصباح البيضاء .

وما هي دقائق قليلة حتى شاهدت فؤاداً يحمل المعول والفأس ويخرج من الاسطبل لينضم إلى الفلاحين الذين كانوا يتجهون نحو الحقول والكروم .

وغرقت في بحر من التفكير القصي البعيد : ترى ما هي هذه الأسرار الغامضة التي يحملها فؤاد في صدره ؟

ولماذا يقيم في الاسطبل ؟..

ولماذا يخنع أمام ابن عمي وحيد ؟

عشرات الأسئلة طافت في رأسي تلك الساعة ، وأنا جالسة على الشرفة ، دون أن أستطيع الإجابة على سؤال واحد منها.

وبعد قليل جاء أبي .

ثم جاء عمي وزوجته إلى الشرفة .

ودهشوا وهم يشاهدونني في جلستي تلك. وتمتم والدي :

– : ما بك يا سلوى ؟.. لماذا أبكرت اليوم في الإفاقة من النوم ؟ هل أنت مريضة ؟

– : كلا ، وإنما طاب لي أن أمتع نظري بمواكب الصباح وهي تغمر هذه الربوع بأنوارها البيضاء يا والدي .

فجلس والدي قربي وهو يتمتم :

– : ان الإفاقة المبكرة تكسب الإنسان قوة ونشاطاً يا ابنتي ، حبذا لو استطعتِ أن تستفيقي كل يوم في مثل هذه الساعة من الصباح .

وجلست امرأة عمي قربي وجلس عمي قرب والدي .
ولم تلبث أن جاءتنا الخادمة بالقهوة فرحنا نرشفها على مهل ونتحدث .

٥

قضيت طيلة النهار وأنا أفكر ..

كنت أفكر بأشياء كثيرة .

وكل هذه الأشياء كانت تدور حول فؤاد وحول مستقبلي ومصيري معه .

وأخذت أرقب المساء بفارغ صبر . في المساء سأجتمع بفؤاد هناك عند الصخرة الوادعة في الغابة الخضراء وأقف منه على كل شيء .

ومرت الساعات بطيئة كسلى على قلبي .

وما ان بدأت الشمس تتأهب للانحدار وراء الأفق البعيد حتى خرجتُ من القصر وسرت في الطريق الملتوي الضيق المؤدي إلى الغابة الخضراء .

كانت الشمس قد بدأت تتأهب للأفول تاركة وراءها وشاحاً أحمر اللون فوق الأفق البعيد عندما وصلتُ الصخرة الوادعة المشرفة على ذلك الوادي السحيق ..

ودهشتُ وقد شاهدت فؤاداً واقفاً فوق تلك الصخرة يحدق بالأفق البعيد على ألم وشجن وحنين ..

ووقفت وراء أغصان شجرة خضراء برهة وأنا أتطلع إلى فؤاد .

وإذا به ينادي ، وهو ينظر إلى الأفق البعيد ، البعيد : يا سلوى !.. يا ... سلوى ..

وبدأت الوديان والتلال والربى والوهاد والجبال تردد صدى الصوت البعيد : يا .. سلـ .. و .. ى .

وإذا بشفتيّ ترتجفان لتناديا بصوت عال قوي : يا فؤاد !.

وردّدت تلك الربوع صدى صوتي البعيد « يا .. فؤ .. ا .. د .. » .

وأجفل فؤاد وهو يسمع صوتي .

والتفت إلى مصدر الصوت ليشاهدني واقفة وراء الشجرة الوارفة الأغصان ..

واقتربت منه فشاهدت الدموع تموج في عينيه .

وتسلقت الصخرة ، ووقفت قرب فؤاد دون أن أنبس بحرف ..

ورحت أحدق بالأفق البعيد واستعرض الشمس في انحدارها وراء ذلك الأفق المخضب بلون الغروب .

وطال صمتنا دون أن يهمس أحدنا بكلمة .

فلا فؤاد تكلم ولا أنا .

كنا نحدق بالشمس وهي تنحدر إلى ما وراء الأفق ونحن صامتان .

وعندما توارى آخر خيط من خيوط الشمس الحمراء أمسكت بيد فؤاد لأقول :

— : فؤاد ! منذ خمس سنوات وأنا أنتظر العودة إليك ، وأحلم بمثل هذه الوقفة فوق هذه الصخرة التي شاهدت معنا السعادة والحب الطاهر المقدس الشريف . منذ خمس سنوات وانا أنتظر أن أسمع الصدى البعيد يردد صوتينا ونحن ننادي « يا فؤاد !.. يا سلوى » . منذ خمس سنوات وأنا أشتاق مرأى وجهك يا فؤاد ، حتى إذا انقضت السنوات الخمس وعدتُ إلى هذه الربوع وجدت أن كل شيء قد تغير ، كل شيء .. حتى فؤاد . إن فؤاداً لم يعد فؤاداً .

ومسح فؤاد دموعه بكفه والتفت إليّ ليقول :

— : « مدموازل » سلوى كفى !.. كفى تعذيبي .. كفى تعـذبني قلبي وروحي . إن قلبي مثخن بالجراح ، حتى لم يعد في قلبي مكان لجرح جديد .

فشدت يدي بيده وهمست :

— : لماذا تناديني يا « مدموازل » ؟ نادني كما كنت تناديني منذ خمس سنوات .

— : لا . أنا لم يعد يحق لي أن أناديك بدون لقب الآن . الآن ، وقد كبرت وأصبحت أدرك أي مقام هو مقامك وأي مقام هو مقامي — أصبح من واجبي أن أحترمك ، أن أحترمك لا أن أحبك .

فعدت إلى الهمس : فؤاد !.. ألا تحبني ؟ هل انطفأت شعلة الحب في قلبك يا فؤاد ؟ هل نسيت كل ما كان بيننا ؟.. هل غمر النسيان قلبك فنسيت جلساتنا على ضفة الجدول وانطلاقنا في السهول والربى والوهاد ؟.. هل نسيت كل شيء ؟ كل شيء يا فؤاد ؟

— : لا يا ..

وهمّ بأن يقول « يا « مدموازل » سلوى » إلا أنني قاطعته بقولي : « قل يا سلوى .. يا سلوى فقط » .

وطفت على شفتيه ابتسامة مثل ذلك الغروب وهمس :

— : يا سلوى .. لا . لا يا سلوى . أنا ما نسيت ، وليتني أنسى . ليت للنسيان طريقاً إلى قلبي ، ليتني أستطيع أن أنسى . إذن لكنت بألف ألف خير .. لقد حرمني الله كل شيء في هذه الحياة ، حتى نعمة النسيان حرمني إياها الله العلي العظيم ، ولكنني لا أتذمر ولا أعترض على حكمته تعالى

لأنني أدرك أن الله لا يحرمنا من ملذات هذا العالم الفاني إلا ليجود علينا بالراحة الأبدية والسعادة الكاملة واللذة التي لا توصف، هناك في العالم الآخر . ان الله عزّ وجلّ يا سلوى يمن علينا هنا على هذه الأرض بكل احتياجاتنا وهو يعرف احتياجاتنا أكثر مما نعرف نحن ، والله كما يبدو حكم علينا بالابتعاد عن بعضنا في هذا العالم يا سلوى . من يدري ! قد يكون الله عزّ وجلّ أراد أن يحرمنا من اللقاء هنا ليجمعنا هناك في ملكوته .

فجلست على الصخرة وهمست : اجلس ، اجلس هنا قربي يا فؤاد .

وجلس فؤاد قربي فأمسكت بيده لأقول :

— : ان الله لا يحرم الإنسان من السعادة على هذه الأرض، الله مصدر الخير والنور والحق والسعادة ، ومشيئة الله مباركة مقدسة هنا على الأرض ، وهناك في السماء يا فؤاد وعلينا نحن أن نتمم هذه المشيئة .

قال ، وهو لا ينفك يحدق بالأفق البعيد :

— : فلتكن مباركة مقدسة مشيئتك يا الله .

وشدت يدي بيده وهمست : قل لي الآن ماذا حدث ؟ لقد وعدتني بأن تخبرني كل شيء يا فؤاد وأن تطلعني على كل شيء . وها أنا أصغي إليك الآن . أخبرني ، أخبرني كل ما حدث طيلة السنوات الخمس التي قضيتها بعيدة عنك .

وصمت فؤاد .

وراح في تفكير بارد كئيب حزين .

ووضعت يدي على كتفه وهمست :

— : فؤاد !.. أريد أن أعلم كل شيء، كل شيء .

— : حبذا لو تعفيني من هذه المهمة يا سلوى، من الأفضل ألا تعلمي شيئاً .

— : بل أنا أريد أن أعلم كل شيء . كل شيء . قل لي ماذا حدث يا فؤاد ؟ لماذا انتقلت من المنزل الذي كنت تقيم فيه إلى الاسطبل ؟ ولماذا تبدي لابن عمي وحيد كل هذا الذل والخنوع ؟

فأرسل فؤاد زفرة محرقة من أعمق أعماق قلبه وهمس :

— : هذه هي مشيئة الله .

قلت ، وقد بدأ الغضب يستبد بي :

— : قلت لك أريد أن أقف على كل شيء .. كل شيء .

فأمسك بيدي يشدها ويقول :

— : لا بأس سأطلعك على كل ما تريدين. بعد أن شخصتُ إلى المعهد بسنة واحدة وقع والدي فريسة داء خطر مؤلم . وكان علينا أن نعالج والدي .. إلا أننا لم نكن نملك المال الكافي للمعالجة. فاستدان والدي من والدك مبلغاً من المال.. وذاب ذلك

المبلغ بمدة وجيزة اجرة أطباء وثمن أدوية ، فعاد والدي إلى الاستدانة من والدك .. ومضت سنة ووالدي فريسة المرض والألم . وذات صباح أطل عمك ابراهيم علينا ، وكان والدي مستلقياً على الفراش يئن من الألم فوقف يقول له :

«اسمع يا أبا فؤاد .. أنت لم تعد تستطيع أن تقوم بالواجب المفروض عليك . فالسهل المكلف بزرعه لم يزرع هذا العام ، والكرم المكلف بحراثته ظلّ بدون حراثة ، ونحن لانستطيع أن نهمل أرزاقنا . سيحل في هذا المنزل الذي تقيم فيه الآن شريك لنا جديد من الفلاحين وعليك أن تخلي هذا المنزل وتخرج منه خلال ثلاثة أيام ...»

ووجم والدي وهو يسمع كلام عمك يا سلوى . وأصيب بالذهول . كان قد قضى العمر كله في ذلك المنزل الصغير الوضيع . وكان قد أفنى زهرة شبابه في حقول عمك ووالدك ولم يكن يحسب إنه سيخرج من ذلك المنزل إلاّ إلى القبر . لذلك فقد خيل إليه انه في حلم وان عمك الذي يتكلم ليس عمك . فأخذ يتمتم : «لا . لا . لا مستحيل .. مستحيل .. مستحيل .. » وكنت أنا واقفاً قرب فراشه فاقتربت منه لأمسك بيده الباردة المرتجفة الواهية وأهمس في أذنه: «خفف عنك يا والدي الحبيب .. خفف عنك » .

وأدرك عمك ابراهيم انه طعن والدي في الصميم فأسرع بالخروج من المنزل تاركاً ضحيته تتقلب على فراش الاحتضار

دون أن تلامس قلبه نسمة من رحمة أو اشفاق .

وما إن خرج عمك من البيت حتى أصيب والدي بنوبة قلبية شديدة فأخذ ينتفض كعصفور ذبيح بين أيدي الصياد .

وذعرت وأنا أشاهد والدي على تلك الحال وحاولت اسعافه ببعض الأدوية والعقاقير والمصول التي كانت قرب سريره إلا انني عجزت عن اسعافه وطردِ شبح الموت عنه .

ومات والدي .. مات والدي ياسلوى وهو يتمتم : «لا .. لا .. لا أريد أن أخرج من هذا البيت الذي ترعرعت وعشت فيه . لا أريد ان أخرج من هذا البيت إلاّ إلى القبر » .

وتمت مشيئة والدي .

فهو لم يخرج من ذلك البيت إلاّ إلى القبر ...

وشيعت والدي إلى المقر الأخير والدموع تحرق أجفاني .

وسار وراء نعش والدي إلى القبر بعض رفاقه الفلاحين .

وعندما ووري جثمانه شعرت بأن جزءاً من كياني قد دفن في التراب . وأدركت أنني أصبحت وحيداً في هذه الحياة : لا أب ولا أم ولا أهل ولا إخوان... في تلك الساعة فكرت بك يا سلوى . وكان تفكيري بك عزاء لقلبي الجريح الكسير . كانت ذكراك وما زالت هي كل ما أملك في هذه الحياة من سعادة وأمل وحنان وشوق وحنين » .

كانت الشمس قد بدأت تتأهب للانحدار وراء الأفق البعيد عندما وصل فؤاد بحديثه عند هذا الحد .

وتوقف فؤاد عن الكلام .

وراح يحدق في الظلال التي كان نور الشمس الواهي الضئيل يرسمها على الصخور والتلال ..

وعلى نور الشمس البرتقالي الواهي شاهدت الدموع تموج في عيني فؤاد فأمسكت بيده الباردة المرتجفة لأهمس: « فؤاد !.. أنا سأنسيك كل ما مرّ بك من حزن وألم وشجن . سأعيد إليك الأمل الذي فقدته ، والحب الذي ضيعته ، والشوق والحنين والعاطفة التي سلبك إياها القدر الغاشم العاق . سأظل قربك ، وستظل قربي ، وسنحيا العمر كله معاً . سنظل معاً يا فؤاد طيلة العمر .. طيلة العمر ؟. لا، بل نحن سنحيا معاً هنا على هذه الأرض الفانية يا فؤاد ، وهناك ما وراء الأفق البعيد البعيد . نحن سنحيا معاً حتى بعد الموت » .

وشدت يد فؤاد يدي وهمس ، وهو يحدق بالأفق البعيد :

ـ : قد نستطيع أن نحيا معاً بعد الموت يا سلوى ، أما هنا ، على هذه الأرض الفانية فإن لقاءنا سيكون قصيراً ، وقصيراً جداً.. لن نستطيع أن نحيا معاً هنا لأن الأقدار التي أوجدتني فقيراً معدماً ، وأوجدتك ثرية غنية ـ حكمت علينا بالفراق منذ أن جئنا إلى هذه الأرض .

ولم أدرك حقيقة ما قال فؤاد يومذاك .

لم أعلم أنه كان يتنبأ لنا بما سيكون .

لا ، لم أعلم ذلك إلا بعد أن تحققت نبوءته بحذافيرها ..

والتفت إلى فؤاد لأقول : « وبعدئذ ماذا حصل يا فؤاد ولماذا انتقلت من المنزل إلى الإسطبل ؟. » قال :

ـ : بعد موت والدي بيومين عاد عمك إبراهيم وابن عمك وحيد إليّ . وكنت جالساً بين بعض المعزين من إخواني الفلاحين فخيل إليّ أن عمك وابنه جاءا ليعزياني على موت والدي . إلا أنني دهشت عندما تقدم عمك إبراهيم ليقول بلهجة قاسية جافة : « اسمع يا فؤاد . عليك أن تخلي هذا المنزل غداً لأن هناك فلاحاً سيحل فيه غيرك . أنت لن تستطيع أن تقوم بالأعمال والأشغال في الحقل والكرم والبستان . » ولم أنبس ببنت شفة . لم أهمس بحرف ، بل حولت وجهي عنهما وقد عزمت في قرارة نفسي على أن أبتعد ليس عن ذلك البيت ولا عن هذه القرية فحسب بل عن لبنان بأسره. كنت قد قررت أن أنزح عن القرية إلى بيروت حيث أعمل أي عمل مدة ، علّني أجمع خلالها نفقات السفر ، ثم أغادر لبنان إلى المهجر القاصي البعيد .. إلا أن الرياح تجري دائماً بما لا تشتهي السفن ، والأقدار لم تكن يوماً لتحقق مشيئة الإنسان وأمله وحنينه .. وعاد عمك إلى الكلام

ليقول : « في الصباح الباكر من غد سيحضر أبو يوسف الفلاح وأسرته وسيحضر ابني وحيد معه ليتسلم منك المنزل أما أنت فستنتقل الى الإسطبل » .

وشعرت بأن قوة هائلة تعصف بي وتدفعني الى الهجوم على عمك والى الثأر منه .. أنا أنتقل الى الإسطبل ! أنا أرضى بأن تمتهن كرامتي الى هذا الحد ؟. لا لا .. وألف لا .. والتفتُّ الى عمك لأقول : « لا أيها السيد إبراهيم . أنا لن أنتقل الى الإسطبل . سأخلي لك هذا المنزل وسأتدبر أمري بنفسي . » ولمحت على شفتي عمك ابتسامة هزء وسخرية أشبه بابتسامة الثعلب عندما يقع على فريسته . وتمتم بكل رصانة وعزم وحزم : « أنت لن تستطيع أن تحقق ما يجول بخاطرك يا فؤاد. ولن تستطيع أن تبتعد عن هذه القرية لانك ستكون مجبراً على العمل هنا في أرزاقنا مدة خمس سنوات على أقل تعديل » .

« لماذا ؟ وكيف يستطيع السيد ابراهيم أن يجبرني على العمل في حقوله وبساتينه وكرومه مدة خمس سنوات ؟. » .

وتردد هذا السؤال في خاطري طويلاً دون أن أستطيع الإجابة عليه ..

وأقمت أرقب بزوغ صباح اليوم التالي بفارغ صبر ..

ولم يغمض لي جفن طيلة ذلك الليل الطويل . فقد استلقيت على فراشي لأنصرف الى التفكير بمصيري المجهول .

وفي الصباح أقبل ابن عمك وحيد مع أبي يوسف ، الفلاح لاستلام المنزل وأثاثه ..

كان المنزل وكل ما في المنزل من أثاث ملك والدك وعمك ..

وتسلم وحيد المنزل وأثاثه مني وسلّم ذلك لأبي يوسف .

ثم التفت إليّ ليقول: « أما أنت فستنتقل فراشك وثيابك الى الاسطبل في قبو القصر يا فؤاد » .

ــ : لا .. أنا سأرحل عن هذه القرية أيها السيد وحيد ..

فهمس وحيد :

ــ : لا يا فؤاد أنت لن تستطيع أن ترحل الآن عن هذه القرية قبل أن تسدّد ما لنا بذمة والدك من أموال .

فصعقت ..

ماذا يقول وحيد ؟.

وتابع وحيد كلامه ليقول : « أنت تعلم أن والدك كان يستدين المال منا ليعالج نفسه، وقد بلغت قيمة ما استدانه منا مبلغ خمسة آلاف ليرة لبنانية إذا أضيفت عليها الفائدة تجاوزت الستة آلاف ليرة لبنانية . أنت ستعمل عندنا الآن وستفي من اجرتك دون أبيك » .

ولم استطع أن أتمرد على ابن عمك . لم أستطع أن أتملص من تسديد ديون والدي .. ورضخت للأمر . وحملت فراشي وانتقلت من المنزل الذي ولدت وترعرعت فيه إلى الاسطبل..

وبدأت عملي الجديد .. كنت وما زلت أعمل حارساً لقصر والدك وعمك وسائساً لخيولهما ، وعاملاً في كرومهما وحارثاً في بساتينها وفلاحاً في حقولهما ..

ومنذ ذلك اليوم بدأ عمك وابنه يسيئان معاملتي ويمتهنان كرامتي .. وكنت ومـا زلت أصبر على معاملتهما منتظراً انقضاء السنوات الخمس لأنعتق من العبودية .. لقد انقضت الآن اربع سنوات ومـا زالت أمامي سنة واحدة .. بعد سنة واحدة سأفرد جناحي وأطير من هذه الربوع التي لقيت فيها الفقر والجوع والذل والهوان » .

وبدأت الدموع تموج في عيني وقد انتهى فؤاد من سرد تفاصيل مأساته الدامية ..

وهمست وأنا أمسح دموعي :

ـ : لماذا لم تلجأ إلى والدي وتطلب منه الانعتاق ؟

ـ : ولماذا أطلب منه الانعتاق ولوالدك ديون في ذمتي ؟ أيخيل إليكِ أنني أرضى بالانعتاق قبل أن أفي ديون والدي يا سلوى ؟. لا وألف لا. أنا لن أرحل عن هذه الربوع قبل أن أفي آخر قرش من ديون والدي .

فهمست ويداي تشدان يده : فؤاد !. أنت لن تعيش هنا يوماً واحداً .. أنا سأهرب وإياك من هذه القرية .

وسحب فؤاد يده من يدي وصرخ : لا . لا . لا أنـا لست مجرماً ولن أكون مجرماً يا سلوى .

وعدت أمسك بيده الباردة الواهية لأقول :

ـ : فؤاد! لنكن واقعيين في الحياة. لماذا والتمويه؟.. أنا أحبك وأنت تحبني ونحن مهما حاولنا الابتعاد عن بعضنـا لن نستطيع الابتعاد . لا أنت تستطيع أن تبتعد عني ولا أنا استطيع ان أبتعد عنك . إن الله العلي العظيم الذي أوجد في قلبينا هذا الحب المقدس الخالد ، منذ الصغر لن يتخلى عنا . ان الله يا فؤاد يرعى حبنا ، وهو قادر على أن يذلل الصعاب التي تعترض سبيل حبنا الطهور .. حتى نصل إلى الشاطىء الأمين.

ونظر فؤاد إلى الأفق البعيد بعينين تغمرهما الدموع ..



وما زلت اذكر نظرته تلك الوادعة الحالمة الحزينة التي ما زالت غارزة في قلبي .. وهمس :

— : سلوى لو ان الله تعالى يريد لنا اللقاء الطويل لما أصدر حكمه القاسي علينا . لو ان الله أراد لنا الحياة معاً لما أوجدك في بيئة أرفع وأعلى من بيئتي .. لو ان الله كتب لحبنا السعادة لما أوجدني فقيراً ولما أوجدك أنتِ غنية . يلوح لي ان الله حكم علينا بالفراق الأبدي على هذه الأرض الفانية . هكذا أراد ، ولكن إرادته مقدسة .

— : لا تكن متشائماً يا فؤاد . الحياة للمتفائلين وليست للمتشائمين . كن متفائلاً . قل معي : نحن سنحيا معـــاً وسنموت معاً .

قال ، وعيناه لا تزال عالقتين بالأفق البعيد :

—:ان أقصى أماني العذاب أن أظل قربك. ولكن ما كل أماني البشر تتحقق على هذه الأرض . من يدري يا سلوى؟ قد يكون الله حكم علينا بالفراق هنا على الأرض ليجمعنا عنده في السماء . ان أسرار الله عميقة الغور وإرادته بعيدة المـــدى لا يستطيع الإنسان أن يدرك كنهها ولا أن يسبر غورها . والإنسان على هذه الأرض يعيش في حلم .. حياتنا كلهـا حلم يا سلوى . ونحن لن نستفيق من هذا الحلم إلا وقـد أطبق الموت أجفاننا وأسدل على عيوننا حجبه الكثيفة السوداء .

فهمست : فؤاد ! أتعاهدني على الحب والوفاء ؟ أتستطيع أن تقسم لي الآن أمام الله وأمام رهبة الطبيعة وخشوعها أن

تعيش قربي مدى الحياة .

قلت له هذا وقد خيل إليّ انني استطيع بذلك ان أبعده عن فكرة السفر وحده إلى المهجر القاصي البعيد .

كنت أريد أن أحتفظ به ، أن أظل قربه ، أن أعيش عمري كله معه، إلا أنه حوّل نظره عن الأفق إليّ ليقول :

— : سلوى .. أي قيمة للقسَم إذا خرج القسم من الشفتين . ان روحي أقسمت لروحك ، وروحك أقسمت لروحي على العيش معاً إلى الأبد فما قيمة قسم الجسد عندمـا تقسم الروح ؟.. ان روحي يا سلوى ستعيش قرب روحك مدى الحياة والموت . هنا على هذه الأرض الفانية وهناك في السماء الخالدة ، . لن تفترق روحانا يا سلوى أبداً أبداً .

فشدت يدي يده لأهمس :

ـ : أريد أن تظل قربي وأن أظل قربك يا فؤاد لا أريد أن ابتعد عنك ، لا أريد أن تنأى وتبعد عني .

والتصقتُ به ، كأنني أريد أن أحتمي بصدره من نفسي .

لقد بدأت أخاف نفسي .

بدأت اخشى أن أهن وأضعف فيفلت فؤاد من يدي ، ويضيع مني .

وشدني فؤاد إلى صدره بعطف وحنان وهمس :

ـ: هل يخيل إليكِ انني أرتاح إلى الابتعاد عنك يا سلوى؟

— : أنا أعلم أنك لا تريد الابتعـــاد عني ، أعلم انك

تحبني وانك تتمنى وتريد العيش قربي مدى الحياة ، إلا أنني أعلم أيضاً انك تخاف فقرك كما تخاف ثرائي . والمال ، المال وحده هو الذي يبعدك عني الآن ، لذلك فأنا أريد مخلصة أن أتخلى عن مالي لأصبح فقيرة مثلك وأعيش كما تعيش أنت .. أشرب المياه التي تشربها وآكل الطعام الذي تأكله وأتوسد الوسادة التي تتوسدها وأفترش الفراش الذي تفترشه .

— : لا يا سلوى . لا يا حبيبتي . ان الأمر ليس بيدك ولا هو بيدي . حتى ولو تخليتِ عن ثروتك فستظلين بعيدة عني .

— : لماذا ؟. وكيف يا فؤاد ؟

— : انتِ عندما تتخلين عن مالك لا تستطيعين أن تتخلي عن اسرتك . عن والدك . عن اسمك . أنتِ ستظلين سلوى ابنة انيس بك عبود سواء أكنتِ فقيرة أم غنية . ان البشر لا يرحمون يا سلوى ، لا يفقهون معنى الحب والتضحية والشعور والحنين . سيقولون — عندما تتخلين عن ثروتك وتلحقين بي — سيقولون : « ابنة انيس بك عبود هربت من دار والدها ولحقت بخادمها » . وهذا ما لست أرضاه لك .

— : ما لنا ولكلام الناس . فليقولوا ما يريدون . يكفي اننا سنكون معاً وان السعادة ستلفنا بأجنحتها الوارفة البيضاء .

— : لا . نحن لن نكون سعيدين ما دام هناك أناس يتكلمون ، وبشر يسلقوننا بألسنتهم الحادة النصال .

— : دعك من كل هذا الآن .. دعنا نبحث أمر سعادتنا . لقد اتخذت قراري ولن أتراجع عنه . أنا سأهرب معك . سأهرب معك إلى أقاصي الأرض ...

فعاد فؤاد إلى الهمس : « لا لا لن أدعك تعرضين سمعتك وسمعة والدك إلى الذل والعار . الحب تضحية ، وبذل ، وعطاء . وأنا سأضحي وأبذل وأعطي ، سأضحي بحبي وأبذل قلبي ، وأضحي بسعادة فؤادي من أجلك . عندئذ ، عندما أضحي يدرك الجميع أنني أحب .

فهمست : فؤاد !.. أي قيمة لحياتي إذا عشتها بعيدة عنك . أي قيمة لعمري إذا أفنيته في البكاء والندب والدموع ! إن سعادتي قربك وراحتي في الاجتماع بك . إذا هجرتني يوماً ، إذا ابتعدت عني — فثق أنني سأموت . الموت عندي أهون وأقرب من الابتعاد عنك .

وصمت فؤاد ، وعاد يحدق بالأفق البعيد والدموع تموج في عينيه .

ولاح لي منه أنه يفكر بما أقول ، لاح لي منه أنه يدرس اقتراحي .

وخيل إليّ أن الدرس سينتهي به إلى الموافقة على الهرب

معاً إلى بلاد قاصية بعيدة لا نعرف فيها أحداً ولا يعرفنا أحد ، حيث نستطيع أن نعيش في حبنا الخالد المقدس حياة سعيدة هانئة .

وطال صمت فؤاد .

ولذتُ أنا أيضاً بالصمت البارد العميق .

وساد السكون المكان ..

وكانت الشمس قد بدأت تتدحرج إلى ما وراء الأفق البعيد راسمة ظلال الأشجار والصخور الناتئة فوق الربى والوهاد وعلى السفوح .

ونسائم الغروب تداعب الأغصان الخضراء فتتهادى الأغصان بين أيدي النسائم المعطرة كأنها أشباح تتمايل في صحراء قاحلة موحشة قفراء .

وقطعت حبل الصمت بعد فترة طويلة لأقول : بماذا تفكر يا فؤاد ؟

ومن خلال دموعه المتأهبة للوثوب من مقلتيه نظر فؤاد إليّ ليقول : سلوى !. لقد حكم الله علينا بالفراق . وعلينا أن ننفذ حكم الله العلي العظيم .

ـ : أنت على خطأ يا فؤاد . إن الله سبحانه وتعالى لم يحكم علينا بالفراق . ولو أن الله أراد أن يحكم علينا بالفراق لما

بذر في قلبينا بذور الحب والشوق والعاطفة والحنين .

ـ : لو أن الله القوي القدير أراد لنا اللقاء على هذه الأرض الفانية لما أوجدك غنيّة وأوجدني فقيراً ، لو أراد الله لنا اتحاد جسدينا كما اتحدت روحانا لأوجدك فقيرة مثلي أو لأوجدني غنياً مثلك .. سلوى : إن الله العلي العظيم جعل من المال حاجزاً بيني وبينك وبذلك حكم على جسدينا بالابتعاد عن بعضهما .

فالتصقتُ به وهمست : ليس للمال سلطة على القلوب يا فؤاد . إن المال لن يكون حاجزاً بيني وبينك . كل ما في العالم من ذهب ومال لا يستطيع أن يشتري ذرة من حب أو عطف أو شوق أو حنان . أنا لا أبيع حبك يا حبيبي بكل ما في العالم من ذهب ومال .

وطوقتُه بذراعي وتابعت كلامي :

ـ لا تفكر بالمال يافؤاد ، لا تفكر . هذه الأشياء المادية لا قيمة لها عندي . أنا على استعداد لأن أتنازل عن كل ثروتي في سبيل دقيقة واحدة أقضيها قربك يا حبيبي .

وطوقني فؤاد بذراعيه ، وكانت تلك المرة الأولى التي يطوقني فؤاد فيها بذراعيه القويتين .

وشدني إلى صدره بقوة هائلة فشعرت أن ضلوعي ستتحطم تحت ذراعيه .

وعدت إلى الالتصاق به .

ولفنا الغروب بوشاحه الرمادي الشفاف ، فخيل إليّ أنني وفؤاد شخص واحد ، إنسان واحد، جسد واحد . وهمس :

— : سلوى . أنا وأنت لا نفكر بالمال . المال لا قيمة له عندنا ، إلا أن البشر ، الناس ، أبناء الأرض لا يفكرون بما نفكر لأنهم لا يحسون بما نحس ولا يشعرون بما نشعر. لقد كان المال ولا يزال وسيظل هدف الإنسان على هذه الأرض . والإنسان يقضي حياته كلها على الأرض يركض وراء المال حتى إذا أدركه استفاق ليجد نفسه على شفير القبر .. لقد قلت لك وأنا أردد الآن ما قلت : نحن لا نستطيع أن نحيا معاً على هذه الأرض يا سلوى لأن المال سيفرق بيننا . الناس لا يرحمون المحبين يا حبيبتي ، إذا هربنا معاً فإن ألسنتهم الحادة ستثخن سمعتك وسمعة والدك بالجراح . أنا لا ولن أوافق على الهرب معاً . فليذهب كل منا في سبيله وليحمل كل منا جراحه الدامية في قلبه ويسير مع الأقدار إلى حيث تسوقه الأقدار ، حتى إذا أدركنا الموت وانعتقت روحانا من هذين الجسدين الترابيين الفانيين انطلقنا معاً إلى السماء لنعيش حياتنا الثانية قرب الله حيث لا فقر ولا غنى ، ولا جوع ولا عطش ، ولا ألم ولا دموع . هناك حيث السعادة الأبدية الخالدة ستعيش روحانا مع أرواح المحبين في سعادة وغبطة وهناء إلى الأبد .

فألقيت برأسي على صدره العامر بالحب وبالعطف وبالحنان وهمست : هل تستطيع أن تبتعد عني يا فؤاد ؟ فقال :

— : ستظل روحي قربك يا حبيبتي تطلّ عليك كل فجر مع أنوار الفجر ، وكل صباح مع مواكب الصباح . وكل مساء مع هنيات النسيم ، وحفيف أوراق الأغصان . عندما تلقين برأسك على الوسادة البيضاء ستجدين روحي ترف على الوسادة البيضاء ؛ وعندما تغمضين أجفانك لتستسلمي للرقاد ستشاهدين روحي منسابة إلى مقلتيك مع أطياف الأحلام وأشباحها ، وعندما تفتحين عينيك ، وقد استفقتِ من نومك ستشاهدين روح فؤاد امامك تبتسم لك وتحنو عليكِ وتغمرك بالحب والعطف والشوق والحنان .

قلت وأنا ألقي برأسي الواهي على صدره وأحدق بالافق البعيد : فؤاد !. لا تحاول ردعي عما عزمت عليه . أنا لن أبتعد عنك ، لن ابتعد عنك حتى يغمض الموت عيني . أنى سرت سأكون رفيقتك وكيفما اتجهت سأكون معك . لن أموت إلا ورأسي على زندك يا حبيبي .

فاغرورقت عيناه بالدموع وتمتم : سنحيا معاً يا حبيبتي ولكن ليس هنا ، ليس على هذه الأرض . سنحيا معاً بعد الموت ، بعد الموت يا حبيبة قلبي وروحي .

كانت الشمس قد توارت وراء الأفق البعيد ، والظلام

بدأ يغمر الوهاد والتلال والجبال والوديان ويلفها بوشاحه الأسود الشفاف .

وبدأت مواكب النور تتقهقر أمام جحافل الظلام الزاحفة في الأفق وكل شيء هادىء ساكن فليس ثمة حركة ولا ضجة ولا صوت .

ما هناك سوى حفيف اغصان الأشجار ، اشجار السنديان والعفص والشربين، التي كانت تتهادى بين ايدي النسيم العليل.

وكنا نحن في جلستنا فوق الصخرة الوادعة نشاهد من خلال اغصان الأشجار مواكب الرعاة والفلاحين يعودون إلى المزرعة وهم يجتازون الطريق المنساب في سفح الجبل انسياب الأفعى الرقطاء ...

ونهض فؤاد .

ووقف ليقول : يجب أن تعودي يا سلوى قبل أن يغمر الظلام هذه البطاح .

— : سنعود معاً .

— : لا .. اذهبي أنت الآن ، وسألحق بك بعد قليل .

فأصررت على الذهاب معه .

وأصرّ هو على أن اذهب وحدي إذ قال :

— : لن نسير معاً في الطريق. قد يشاهدنا الفلاحون ويصل الخبر إلى والدك وإلى عمك ، والله وحده يعلم عندئذ ماذا ستكون النتيجة .

— : انا لم يعد يهمني أحد . كل ما يهمني هو أن أظل قربك يا فؤاد .

فأمسك بيدي يشدها بحرارة ويهمس :

— : سنظل معاً ياسلوى . إن روحي ستظل قرب روحك إلى الأبد .

ونهضت ووقفت قربه هامسة : تعال نسر معاً .

— : لا . لا . اذهبي أنت الآن وسألحق بك .

وحاولت إرغامه على المسير معي إلا انني عجزت .

كان يريد ان يحافظ على سمعتي ، ويتقي غضب والدي وعمي ..

ونزلت اخيراً عند طلبه وسرت .

لقد سرت في الطريق الملتوي البعيد المحفوف بالأشجار الباسقة الوارفة الأغصان وانا اتلفت ورائي ..

وشاهدته ما زال واقفاً على الصخرة وهو يشيعني بنظرة ملؤها الحب والعاطفة والشوق والحنين ..

ومضيت في مسيري وانا اتلفت ورائي حتى تواريت عنه

وراء الربوة الهادئة الوادعة الخضراء .

ووصلت إلى القصر فإذا بامرأة عمي تستقبلني بلهفة قائلة :

ــ : أين كنت يا سلوى ؟ لقد أقلقت خاطرنا عليك . والدك يسأل عنك . تعالي معي إليه .

ولم تترك لي مجال الرد عليها .

كانت تتكلم بدون توقف ولا انقطاع .

وسرت قربها إلى الشرفة حيث كان عمي ووالدي جالسين يتحدثان بصوت غير مسموع. كانا يتهامسان ..

والتفت والدي إليّ ليقول :

ــ : أين كنت يا ابنتي ؟ لقد اقلقت خاطرنا .

ــ : كنت اتنزه في الحقل .

ــ : حتى هذه الساعة المتأخرة ؟

ولاح لي من والدي انه يشك في ما أقول . لاح لي منه انه بدأ يرتاب بي .

إلا انني لم آبه للأمر وقلت :

ــ : أجل ، حتى هذه الساعة .

وجلست امرأة عمي قرب زوجها بلطف .

وجلست أنا قرب والدي بانزعاج . ورحنا جميعاً نتحدث شتى الاحاديث .

وبعد قليل دعتنا امرأة عمي إلى مائدة الطعام ، فنهضنا ودخلنا إلى القاعة الفسيحة الأرجاء .

والتفت والدي إلى عمي ليقول : اين وحيد ؟

وتولت امرأة عمي الجواب حين أجابت :

: وحيد كعادته . لا يعود إلينا قبل العاشرة من الليل .

ــ : آه ! لم يعد له الحق الآن ، بعد أن عادت سلوى من المعهد ، أن يتأخر في العودة إلى الدار . سلوى ستعتب عليه .

وأدركت أن عمي يريد أن يذكرني بأن ابنه وحيد خطيبي ، إلاّ أنني تجاهلت الأمر .

وجلست في مقعدي إلى مائدة الطعام .

وجلس والدي قربي ثم جلس عمي وجلست امرأته قربه ..

وبدأنا بتناول الطعام .. وفيما أنا أتناول الطعام الشهي لمع في رأسي خاطر سريع : فؤاد .. فؤاد ، ماذا يتناول من طعام ؟. من المؤكد أن طعامه مقتصر على الخبز والزيتون والجبن والدبس فكيف أتناول أنا شهي الطعام وحبيبي لا يستطيع أن يتناول ما أتناوله من اللحوم والطيور والخضار والحلوى ؟

وتوقفت اللقمة في حلقي .

وشعرت بغصة تحرق قلبي .

وكدت أتوقف عن تناول الطعام، إلا أنني خشيت أن يلاحظ والدي وعمي وزوجته ارتباكي وقلقي واضطرابي فمضيت في تناول الطعام على كره مني ، وأفكاري منصرفة إلى حبيبي فؤاد ..

وانتهينا من تناول الطعام ، ونهضنا لندخل إلى قاعة السهرة حيث رحنا نرشف القهوة على مهل ونتحدث ..

وبالرغم من أنني كنت أشاركهم حديثهم فقد كانت أفكاري ، كل أفكاري هناك ، في الاسطبل عند فؤاد .

وشعرت بضيق في صدري وبألم عميق في روحي .

شعرت أنني بحاجة الى الوحدة والانفراد لأنصرف بكل قواي وحواسي الى التفكير بفؤاد ..

ونهضت وقد انتهيت من رشف قهوتي لأقول : تصبحون على خير .

ولمحت الدهشة في الوجوه الثلاثة ، وجه والدي ، ووجه عمي ووجه امرأة عمي. وقالت امرأة عمي: الى أين؟ فأجبتها:

— : الى غرفتي . أريد أن أنام .

قال والدي : الآن ؟ وفي مثل هذه الساعة المبكرة من المساء !

وقبل أن أجيب قالت امرأة عمي : يبدو أن سلوى أسرفت في المسير وهي تتنزه فأدركها التعب .

قال والدي : ألا تريدين أن تسهري معنا يا سلوى ؟

— : الحقيقة أنني متعبة يا والدي وأريد أن أرتاح .

وعادت امرأة عمي إلى الكلام لتقول لوالدي : لا بأس دعها تنام لترتاح .

والتفتت إليّ لتقول : تصبحين على خير يا حبيبتي .

ومرتُ إلى غرفتي .

ولكن لا لأنام بل لأنطرح على السرير وأغوص في التفكير العميق البعيد السحيق ..

ومرت في خاطري مئات الصور والمشاهد .

ورنت في أذني كلمات فؤاد وهو يروي لي مأساته الدامية المؤلمة الرهيبة ..

واستعدتُ في خاطري كل ما دار بيني وبين فؤاد من أحاديث ..

كانت الأحداث والمشاهد تمر أمامي ، وانا مستلقية في

سريري ، وكأنها شريط سينمائي يمر أمام عيني بسرعة واندفاع ..

ومرت الدقائق ، وانطوت الساعات ، وأنا مستلقية في سريري أفكر بالماضي وبالحاضر وبالمستقبل ..

ولم أستفق من تفكيري العميق إلا والساعة قد أشرفت على منتصف الليل ..

وفجأة لاح في رأسي خاطر مريع : لماذا لا أشخص الى فؤاد ؟

وتساءلت : الآن ؟..

أجل الآن .

إن فؤاداً على مقربة مني . إنه تحت في الإسطبل. ما عليّ إلاّ أن أخرج من غرفتي على مهل وأتسلل من الباب الى الحديقة ومن الحديقة أشخص الى الإسطبل ..

ووجمتُ وقد وصلت بتفكيري الى هذا الحد .

وهمست في سري : « ما بك يا سلوى ؟ هل جننت ؟ كيف تدلفين الى فؤاد في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟ » .

وكدت أتراجع عن هذه الفكرة .

إلا أن الفكرة التي مرت في خاطري وأنا جالسة في قاعة الطعام عادت تمر في خاطري وأنا مستلقية في السرير : « وماذا يأكل فؤاد ؟ » .

ودون تراجع ولا تردد وثبت من السرير لأرتدي فوق ثوب النوم « روب دي شامبر » ثم أتسلل من الغرفة على مهل متجهة نحو قاعة الطعام ..

كان القصر غارقاً في الهدوء والسكون .

فالكل نيام ..

والدي ، وعمي ، وزوجته ، والخدم ..

ودخلت إلى قاعة الطعام ورحت أجمع بعض الطعام الشهي وأضعه في رغيف من الخبز ، ثم لففت الرغيف والطعام في « فوطة » ، وسرت على مهل بكل حذر إلى الباب .

وفتحت الباب على مهل .. وهبطت السلالم على مهل.. إلى الحديقة ..

وما كدت أسير خطوات قليلة في الحديقة حتى سمعت وقع أقدام فذُعرت ..

ووقفت في مكاني ..

ورحت أحدق عبر الظلام في آخر الحديقة حيث كان صدى وقع الخطوات يتعالى مقترباً مني ..

واستطعت ان أتميز شبحاً يسير نحوي على مهل ..

كان يترنح ويتهادى في مسيره .

وازداد خوفي .. واشتد هلعي والشبح المتبطن الظلام يقترب مني .

ولم أعلم ماذا عليّ أن أفعل ..

هل أعود أدراجي إلى القصر ؟

هل أتقدم ؟.

هل أختبىء ؟.

لست أدري، لست أدري .

لقد أضاعت المفاجأة صوابي ، فأنا لم أكن انتظر أن أشاهد أحداً ولا أن ألتقي بأحد في الحديقة ..

وعدت أحدق بالشبح وهو يقترب مني .

واستطعت أخيراً ان اكتشف حقيقة الشبح لأزداد ذعراً ...

فالشبح ذاك لم يكن سوى ابن عمي وحيد .

كان وحيد عائداً من « سهرته » ، وهو يترنح من السكر ..

أسرعتُ إلى الاختباء وراء شجرة التفاح واندسست بين

أغصان شجرة التفاح اراقب وحيداً وهو يسير نحو باب القصر ، وأنا امسك قلبي بيدي .

كنت اخشى ان يكتشف وحيد أمري ، أو ان يراني ، وهناك الطامة الكبرى .

ومرّ وحيد بالقرب من شجرة التفاح فحبست أنفاسي في صدري وكدت أقع على الأرض من شدة هلعي وخوفي واضطرابي .

واجتاز الممر القصير .

ووصل إلى باب القصر . فتنفست الصعداء .

إلا انني لم أرتح كل الارتياح إلا بعد ان دخل وحيد إلى القصر وأغلق الباب وراءه ..

وخرجت من وراء أغصان شجرة التفاح وأنا أكاد لا أصدق انني نجوت من الفضيحة .

وسرت على مهل ، وبكل حذر نحو الاسطبل وأنا احمل بيدي الطعام ..

ووصلت إلى باب الاسطبل وقد خيل إليّ ان فؤاداً يستغرق في النوم ، إلاّ انني كنت على خطأ .. فقد شاهدت نوراً أحمر ضئيلاً واهياً ينبعث من ثقب باب الاسطبل فأدركت ان فؤاداً متيقظ وانه لم ينم بعد .

واقتربت من الباب بكل حذر ، وطرقته .. إلا انني لم أسمع جواباً من الداخل .

ودفعت الباب بيدي ففتح ..

لم يكن الباب موصداً من الداخل ، ولم يكن لدى فؤاد ما يخشى عليه كي يوصد الباب ..

وإذا بي أمام فؤاد وجهاً لوجه ...

كان فؤاد مستلقياً على ظهره فوق فراش من القش وقد وضع يديه الاثنتين وراء رأسه واستسلم لتفكير عميق بعيد سحيق القرار .

تُرى ! بماذا كان يفكر فؤاد تلك الساعة ؟.

لست أدري الآن ، ولن أدري فيما بعد .

ودهش فؤاد .

ووجم ، وهو يشاهدني أدخل إلى الاسطبل .

واستوى في فراشه على دهشة ووجوم .

وهمس كلمة ، كلمة واحدة فقط : سلوى !..

وتقدمت منه بكل حذر والابتسامة الواهية الصفراء تطفو على شفتي .

وهمست : فؤاد !. ألا تزال ساهراً يا حبيبي ؟.

ولم يجب فؤاد على سؤالي ، بل همس : مـاذا جئت تفعلين هنا ؟

قال هذه الكلمات القليلة بسرعة وبشيء من الغضب ..

وعلى ضوء السراج الزيتي الواهي الضئيل شاهدت الذعر يطل من عيني فؤاد ..

وعدت إلى الاقتراب منه لأقول :

ـ : بماذا تفكر يا فؤاد ؟. يخيل إليّ أنك كنت غارقاً في بحر عميق من التفكير .

وأشاح فؤاد بوجهه عني وتمتم :

ـ : عودي من حيث أتيت .. عودي حالاً ، حالاً .

ولم أعد ، لم أمتثل لأمره ، بل وضعت الطعام الذي جئت به على منضدة مخلعة كانت جاثمة في زاوية الاسطبل ثم عدت إلى الاقتراب من فؤاد لأهمس :

ـ : أهكذا تطرد ضيوفك يا فؤاد ؟

وأخفى فؤاد وجهه بيديه وراح يتمتم :

ـ : لا . لا . لا . لا تقربي مني . عودي إلى غرفتك . عودي من حيث أتيت يا سلوى ، عودي عودي .

وجلست قربه على الفراش وأمسكت بيده فإذا بها باردة كالثلج .

وهمست :

— : فؤاد : لقد قاومتُ رغبتي في الحضور إليك فلم أستطع المقاومة . كانت هناك قوة هائلة رهيبة تجذبني إلى هنا. أرجو أن تفهمني يا فؤاد وأن تدرك حقيقة شعوري . لا تغضب يا حبيبي ، ولا تفكر بأن التي تزورك الآن هي إبنة القصر الشامخ العالي المنيف. أرجو أن تتأكد من أنني حبيبتك وأن ليس بيني وبينك مقام يفرق بيننا . أنت أقرب مني إلى نفسي يا حبيبي .

قال : سلوى لا تغامري بقلبي وبقلبك . لا تدفعيني ولا تدفعي نفسك بيدك إلى الهاوية . فلنكن واقعيين يا سلوى . لماذا التمويه لإخفاء الحقيقة الساطعة كالشمس ؟ خير لي ولك أن نبتعد عن بعضنا . البعاد وحده هو الحل القويم للمعضلة . عودي إلى سريرك يا حبيبتي ودعيني وحدي هنا .

— : كيف يطيب لي النوم في فراشي الوثير وأنت تتمدد هنا على فراش من قش ؟ كيف تطيب لي الإقامة في القصر وأنت تقيم هنا في الإسطبل ؟ كيف تريدني أن أسعد يا فؤاد وأنت تشقى ؟

— : الأقدار تريد لنا هذا المصير . ومن تراه يستطيع

مقاومة إرادة الأقدار يا سلوى ؟.. إن حكم الأقدار مبرم لا استئناف فيه ولا تمييز . وعلينا أن نخضع لهذا الحكم مهما كان قاسياً شديداً . ليس لنا أن نتمرد على مشيئة الأقدار ، ومشيئة الأقدار هي مشيئة الله . لقد حكمت علينا الأقدار بالفراق على هذه الأرض وعلينا أن نذعن لحكمها .

ولاح لي منه أنه في ثورة لاهبة عاصفة حمراء .

كان يتكلم بقوة وسرعة ، وهو يرتجف .

إن منظر تلك الليلة ما زال ماثلاً أمام عيني حتى الآن ، يا له من منظر مؤلم مؤسف رهيب ..

وهمست :

— فؤاد ! إن الأقدار التي أوجدتني غنية وأوجدتك فقيراً ، هي نفسها مهدت أمامنا سبيل اللقاء . الأقدار هي التي أعادتني إليك بعد غياب خمس سنوات في معهد راهبات عبرين ، والأقدار نفسها هي التي جمعتني بك هناك في الغابة الوارفة الخضراء عند الصخرة المطلة على الوادي السحيق ، والأقدار هي هي نفسها التي قادتني الآن إليك .. ومن يدري يا حبيبي ، قد تكون الأقدار هي التي ستمهد لنا سبيل الهرب معاً إلى أقاصي الأرض!!

وانتفض فؤاد وتمتم :

— : الهرب ؟ لا ، لا لقد قلت لك وأعيد القول الآن . أنا لن أهرب معك كاللصوص المجرمين . لن أهرب . لن أهرب .

— : لقد رسمتُ أنا الخطة . كل شيء جاهز .. ليس لك إلا أن تمسك بيدي وتهرب بي . أهرب بي إلى حيث تريد .. إلى حيث تريد يا حبيبي . لك أن تختار البلاد التي سنحل فيها ولن يكون لي أي اعتراض .

فارتسمت على شفتيه ابتسامة واهية صفراء وهمس :

— : اسمعي يا سلوى . أنا لن أستطيع أن التخلى عن عملي هنا قبل عام . لن أستطيع أن أفي ديون والدي لأبيك قبل انقضاء العام .

— : أنا أعطيك المال لتفي ديون والدك يا فؤاد .

فانتفض على ذعر وهدر :

— : لا . لا . لا أتريدينني أن أكون لصاً يا سلوى ؟. لن ألوث يدي بمال حرام .

— : إن المال الذي سأنقدك إياه هو مالي.. مالي أنا وليس مال والدي .

— : مالك ومال والدك محرم لديّ .

— : دعنا من هذا البحث الآن وتعال نتناول الطعام .

قلت هذا ونهضت لأتناول الطعام عن المنضدة المحملة وأعود إليه ..

وشاهدت الدموع تموج في عينيه ، وهو يشاهدني أحمل الطعام إليه فأدركت أنني جرحت كبرياءه وشموخه ..

وهمست كي أخفف الصدمة عنه :

— : لا يخيلن إليك أن هذا الطعام هو لك وحدك . لا .. أنا جائعة أيضاً وأريد أن أتناول الطعام معك .

قلت هذا وجلست قربه على الفراش .

وبسطت الطعام فوق منديل أبيض كبير ورحت أقدم له الطعام الشهي بيدي ..

وحاول أولاً أن يرفض تناول الطعام من يدي ، إلا انني استطعت ان أقنعه بمشاركتي الطعام مدّعية انني جائعة وانني لن أتناول الطعام ، بل سأظل جائعة إذا لم يشاركني طعامي ..

ورحنا نتناول الطعام ونتحدث شتى الأحاديث .

وعندما انتهينا من الأكل ، نهضتُ ، ورحت انظف السرير والمنضدة ..

أنا ابنة القصر ، أنا التي لم أمد يدي لأنظف سريري أنصرف الآن إلى تنظيف الاسطبل الذي يقيم فيه حبيبي ..

يا لقوة الحب الهائلة الجبارة القوية التي لا تقهر ..

لقد كنت أنظف الاسطبل وأنا أشعر بلذة فائقة ، لذة التضحية من أجل ذلك الذي أحب وأهوى .

ووثب فؤاد إليّ محاولاً أن يمنعني من العمل .

إلا انني أبيت ان أنزل عند محاولته ومضيت في العمل ..

وعندما انتهيت من عملي عدت إلى الجلوس على الفراش قرب فؤاد ورحنا نتحدث ونتسامر ونتساير ..

وكنت وأنا جالسة قرب فؤاد يخيل إليّ انني أجلس في قصر شامخ منيف لا في اسطبل حقير وضيع .

ومضى الوقت سريعاً دون أن نشعر ..

وبدأت أنوار الفجر الوردية اللون تتسرب من نافذة الاسطبل ساكبة علينا نوراً شفافاً جميلاً .

وبدأ نور السراج الزيتي الصغير يخبو أمام أنوار الفجر فنهضت قائلة : « أنا سأعود إليك ليلاً يا فؤاد . انتظرني في الساعة العاشرة من الليل » .

وصمت فؤاد ..

ولاح لي منه انه حائر لا يعلم بماذا يجيب .

هل يوافق على حضوري إليه ليلاً أم يرفض ؟.

فهو يريد أن يراني قربه وأن يجلس قربي ولكنه يخشى على كرامتي وسمعتي إذا ما افتضح أمرنا .

وفتحت ذراعي لأضمه إلى صدري ..

وشعرت أن الدنيا كلها ملكي وفؤاد بين ذراعي ..

وانسلخت عنه ، واسرعت بالعودة إلى القصر .

وتسللت إلى غرفتي لأندس في السرير ، ولكن لا لأنام بل لافكر بمصيري وبمصير فؤاد ..

ورحت افكر : ماذا عليّ ان أفعل كي أنقذ فؤاداً من حياة البؤس والعذاب والشقاء التي يحياها ؟..

ماذا عليّ ان أفعل كي احتفظ بحبيبي وأعيش العمر كله قربه ؟.

ماذا عليّ ان أفعل كي أنقذ قلبي وقلب فؤاد من الآلام والعذاب والشقاء ؟..

لقد فكرت طويلاً تلك الليلة ، وجال في رأسي ألف فكر وفكر .

فكرت بأن أطلع امرأة عمي على أسرار قلبي .

وفكرت بأن اصارح والدي بحقيقة العلاقة المقدسة القوية التي تربطني بفؤاد .

وفكرت بأن أقطع كل صلة لي بفؤاد ..

إلا أن جميع هذه الخواطر والأفكار عبرت عباب رأسي دون أن أستطيع التوقف عند خاطر أو فكرة منها ..

وأدركت أنني عاجزة عن تنفيذ فكرة واحدة من هذه الأفكار .

فأنا لا استطيع ان أطلع أحداً على سري ، لا امرأة عمي ولا والدي ولا أي إنسان آخر ..

ولا استطيع الابتعاد عن فؤاد . ان الموت أهون وأيسر لديّ من الابتعاد عن حبيبي .

ولم أجد أمامي سوى طريق واحد للخلاص .

طريق الهرب مع فؤاد .

ليس ثمة إلا هذا الحل للمعضلة التي تحيط بي ..

وعزمت على الهرب مع فؤاد . سأهرب وإياه إلى اقاصي الأرض ونعيش معاً عيشاً هانئاً سعيداً رغيداً .

ولكن ..

وتوقفت عند كلمة – ولكن – ولكن فؤاداً لن يهرب معي .

لن يتخلى فؤاد عن العمل في أرزاق وحقول وكروم

وبساتين والدي وعمي قبل ان يفي ما لوالدي ولعمي بذمة والده الراحل من مال .

لقد كان فؤاد يعمل عندنا دون أن يتقاضى أجرته .. كان يعمل ليفي ديون والده ..

وفؤاد أطلعني على هذه الحقيقة الجارحة وقال لي :

« أنا لن أتحرر من العبودية ، لن استطيع ان أتخلى عن العمل عندكم قبل ان أفي ديون والدي ، ولن يكون ذلك قبل سنة » .

سنة ؟

سنة كاملة سيظل فؤاد مقيماً في الاسطبل ؟.

سنة كاملة سأظل أنا ويظل هو في عذاب وألم وشقاء ؟..

لا . لا . لا ، أنا لن أستطيع ان أصبر سنة كاملة .

يجب ان أحرر فؤاد وان أهرب وإياه في العاجل القريب الوشيك .. والآن إذا قبِل مني ذلك .

ولكن الديون ..

كيف سيفي فؤاد الديون ؟..

ان فؤاداً مصمم على وفاء ديون والده قبل أن يتخلى عن العمل ..

ما العمل ؟.

وعدت إلى التفكير ..

وأخيراً وبعد تفكير طويل اهتديت إلى الحل ..

سأمد يدي إلى صندوق والدي وأغرف منه المال وأعطيه لفؤاد .

وفؤاد سينقد والدي المال ويفي ديون والده ويتحرر من هذا الطوق الثقيل الذي يثقل عنقه .

ثم أحل ثيابي وحلاي وأطير إلى فؤاد فأمسك بيده وأسير واياه إلى المهجر البعيد .

وراقت لي الفكرة ، وقد أدركت ان ليس ثمة أي حل لمعضلتنا إلا هذا الحل .

وعزمت على تنفيذ الفكرة الموفقة في القريب العاجل ..

اليوم ؟.. أجل ، اليوم سأفتح صندوق والدي العامر بالذهب وبالمال وأغرف منه الوف الليرات ادفع بها إلى فؤاد و .. وينتهي كل شيء .

وارتحت بعض الارتياح وقد وصلت بتفكيري إلى هذا الحد .

وشعرت بالنعاس الشديد يثقل اجفاني فأغمضت عيني واستسلمت لنوم هادىء عميق ..

وبدأت الأحلام تغمر رأسي . وما الأحلام سوى صدى تفكيرنا ورغباتنا وأمانينا .

فشاهدت نفسي في الحلم غارقة في كومة من الذهب والنقود والأوراق المالية .

ثم شاهدتني أطير على بساط من الأوراق النقدية ..

وإذا بفؤاد يهبط عليّ من السماء العالية ليجلس قربي على البساط ..

وطار البساط بنا في الفضاء ماخراً عباب الجو .. وارتفع بنا حتى بلغنا الغمام ..

وفجأة شاهدت فؤاد يهبط وحده ويهوي من أعالي الفضاء إلى الأرض ..

وذعرت .. ورحت أناديه بخوف وهلع ، إلا انه لم يسمعني .. وسقط فؤاد فوق جبل من نار فالتهمته النيران ..

ورحت ألطم وجهي وأجهش بالبكاء وأصرخ : ياويلي .. يا ويلي .. خرب كل شيء . حلّت النكبة .

واستفقت مذعورة فاذا بالدموع تغمر عيني وتبلل وسادتي .

ومسحت دموعي .

ونهضت من السرير شاكرة الله لأن مـــا رأيته كان حلماً فقط ، وليس حقيقة أبداً .

وغسلت وجهي وارتديت ثيابي وخرجت إلى الشرفة .

إلّا أن ذلك الحلم ظلّ ماثلاً أمام عينيّ ، وهو مـا زال ماثلاً أمام عيني حتى اليوم .

كان والدي وعمي جالسين على الشرفة فجلست قربهما ..

ودهش والدي وهو يراني أبكّر في النهوض من النوم وسألني:

— : ما بك يا سلوى ؟. لماذا تبكرين في النهوض من النوم على غير عادتك ؟

— : لقد أردت أن أتناول القهوة معك يا والدي الحبيب.

— : حبذا لو تتناولين القهوة معي صباح كل يوم يا سلوى.

وأطلّت امرأة عمي . وارتسمت الدهشة على وجهها وهي تشاهدني جالسة قرب والدي . وهمست :

— : كيف استطعت أن تبكري في النهوض من السرير اليوم ، يا إبنتي ؟

— : سأجرب أن أستفيق من النوم كل يوم، وفي مثل هذه الساعة .

فجلست امرأة عمي قربي وهي تقول :

— : ان النهوض في ساعة مبكرة من الصباح يكسب الإنسان قوة ونشاطاً ، لأن نسيم الصباح العليل يفرح قلب الانسان ويبعث في دمه القوة والمناعة .

ولم تلبث أن جاءتنا الخادمة بالقهوة فجلسنا نرشفها ونتحدث ..

وانصرف والدي وعمي إلى التحدث عن العمل والكروم والبساتين والحقول والمواسم والبذار والفلاحين .. إلى أن توصّلا في حديثهما إلى فؤاد .

وأرهفتُ أذني وأنا أسمعهما يتحدثان عن فؤاد ..

وسمعت عمي يقول :

— : ان فؤاد العاصي عامل نشيط يحسن عمله ويتفوّق على جميع العمال . يجب أن نحتفظ به فهو يجيد تقليم الكرمة وحراثة الأرض والزرع والحصاد ورش الأثمار بالمواد التي تبيد الحشرات .

قال والدي : ولكن فؤاداً سيصبح حرّاً طليقاً بعد سنة واحدة، بعد سنة يا أخي يكون فؤاد العاصي قد وفى ديون أبيه . إن المال الذي استدانه والده منا يبلغ زهاء خمسة آلاف ليرة لبنانية وقد تعهد فؤاد بأن يعمل عندنا مدة أربع سنوات دون أن يتقاضى منا سوى ثمن طعامه وثيابه ، حتى

يفي ديون والده . وها قد مضى على عمله في حقولنا وكرومنا ثلاث سنوات ولم يعد أمامه سوى أن يعمل سنة واحدة .

قال عمي : لكنه لن يستطيع أن يجد بين ملاّكي ومزارعي هذه الأنحاء أفضل منا . نحن سننقده مئة وخمسين ليرة لبنانية كل شهر لقاء عمله في حقولنا وكرومنا وبساتيننا .

ورشف والدي قهوته وتمتم :

— « لقد لمست رغبته في التخلي عن العمل في حقولنا وكرومنا وبساتيننا بعد أن يفي ديون أبيه ، وأخشى أن نعجز عن إقناعه بالبقاء في هذه المزرعة .

وتمتم عمي « لا تخشَ إفلاته من يدنا . أنا أعرف كيف سأحتفظ بهذا العامل القوي القدير النشيط . إننا بحاجة قصوى إليه ونحن لن نتخلّ عنه .

وضحكت في سري وأنا أسمع حديث عمي ووالدي . وقلت في نفسي : « اطمئنا . إن فؤاداً سيكون حراً طليقاً وسيغادر هذه المزرعة غداً أو بعد غدٍ على أبعد تعديل » .

ورحتُ أتحدث إلى امرأة عمي شتى الأحاديث المنزلية ..

ولم يلبث أن نهض عمي ووالدي .

ونهضت امرأة عمي قائلة :

— « إن طعام الصباح جاهز . تفضلوا .

وكان عليّ أن انهض وأنا أسير معهم إلى قاعة الطعام بالرغم من أنني لم أكن جائعة ولم تكن لديّ شهية لتناول الطعام ..

وجلس كل منا في مقعده حول المائدة ..

والتفتّ إلى امرأة عمي أسألها :

— « أين وحيد ؟ فأنا لا أراه بيننا .

وارتسمت على شفتي امرأة عمي ابتسامة خبث ومكر ودهاء وكأنها اكتشفت سر قلبي ..

لقد خيل إليها أنني لم أبكر في النهوض إلا لأشاهد ابنها وأتناول طعام الصباح معه ..

وهمستْ :

— : وحيد لا يزال يغط في نومه. هو لا يستفيق من النوم قبل الساعة العاشرة إلا إذا كان يريد الذهاب إلى الصيد .

— « يبدو أنه أطال السهر ليلة أمس .

لقد قلت هذا وأنا أعلم أنه أطال السهر وأنه عاد إلى القصر والسكر يتعتعه .. وكنت قد شاهدته عائداً يترنح من السكر .

وتمتم عمي ، وهو يرمقني بنظرة خبث ودهاء :

- : غداً عندما يتزوج وحيد سينقطع عن السهر ويكرس أوقاته كلها لزوجته الحبيبة ويقف عليها عاطفته وحبه وحنانه .

ولم أجهل ما يرمي عليه عمي . كان يريد أن يطمئنني ويقنعني بأن وحيد سيكون زوجاً صالحاً مخلصاً وفياً .

وعدت إلى الضحك في سري : « مساكين! بماذا يفكرون وبماذا أفكر أنا ؟! »

لو أن الإنسان يستطيع أن يقرأ أفكار أخيه الإنسان لعاش الناس في فوضى ، ولاختلت موازين الحياة ولاندثرت الشرائع والقوانين ووقف جميع الناس عراة في وجه الشمس..

وانتهينا من تناول الطعام .

فنهض والدي وعمي ليخرجا من القصر إلى أعمالهما .

وانصرفت امرأة عمي إلى إعداد طعام الغداء في المطبخ .

ودخلت أنا إلى غرفتي لأفكر بتنفيذ الخطة التي رسمتها : يجب أن أحصل على المال من صندوق والدي ، على أي مبلغ من المال ، وأن أجمع حلاي وجواهري وأسرع بالهرب مع فؤاد .

٥

تجسمت الفكرة ، فكرة الهرب مع فؤاد ، في رأسي .

وعزمت على البدء بالتنفيذ فوراً . الآن ، في هذه الساعة سأبدأ التنفيذ ..

ونهضت إلى خزانتي أفتحها وأتناول منها الصندوق الخشبي الصغير وأعود إلى الجلوس على السرير لأفتح الصندوق وأستعرض جواهري وحلاي ..

كانت تلك الجواهر والحلى ثروة كبيرة . إنها حلى وجواهر والدتي ، وقد انتقلت إلي بعد موتها ، وكان بينها بعض الحلى والجواهر لي أنا ..

وبهرت الحلى والجواهر عيني . كان هناك خاتم من ماس

ورثته والدتي عن والدتها يقدّر ثمنه بزهاء عشرين ألف ليرة . فهو الى جانب قيمته الماسية الثمينة ذو قيمة أثرية نادرة .

وكان هناك خاتم آخر من ماس هو هدية والدي لوالدتي يوم خطبها من والديها ، وقد قال لي والدي مرة أنه اشترى هذا الخاتم بمبلغ مئتي ليرة ذهبية وهو يساوي اليوم زهاء عشرة آلاف ليرة لبنانية .

وكان هناك في العلبة أساور وخواتم من ذهب وماس ، وعقود من لؤلؤ ومن ذهب و « بروشات » وخواتم من فيروز وياقوت وساعات ذهبية نسائية مطعمة بالماس والجواهر ..

كان في ذلك العلبة كنز ثمين نادر .

وارتحت شديد الارتياح وأنا أستعرض تلك الجواهر والحلى ..

وأعدت الصندوق الخشبي الصغير الى الخزانة ورحت ابحث في خزانتي عن المال .

ولم يكن ثمة لديّ سوى بعض الأوراق النقدية القليلة . فأنا لم أكن أهتم بالمال ولم أكن أحتفظ بمبلغ كبير . وجمعت تلك الأوراق وعددتها فبلغت قيمتها زهاء خمسمئة ليرة لبنانية ..

وعدت الى التفكير بالحصول على المال من صندوق والدي:

إن الحصول على المال من صندوق والدي أمر يسير ، فوالدي يضع أمواله كلها في صندوق حديدي في مكتبه ويضع مفتاح الصندوق الحديدي في خزانته ..

ما عليّ الآن الا أن أستولي أولاً على المفتاح ثم أفتح الصندوق وأغرف منه المال ..

ثم أحمل الحلى والجواهر والمال وأطير الى فؤاد .

وبدت لي الخطة موفقة سهلة التنفيذ ...

لن يستطيع أحد ان يكتشف أمري . سأنفذ خطتي هذه ليلاً ..

ان الجرائم عادة ترتكب في الليل ، فالليل ستار العيوب وصديق السارقين المجرمين ..

وانتفضت على قشعريرة ورعب وأنا أفكر بالليل وبالسارقين وبالمجرمين ..

أأكون سارقة ؟ أأصبح مجرمة لصة ؟. لا لا وألف لا .

ولكن ..

وبدأت كلمة « ولكن » تتأرجح في خاطري ..

ولكنني لست مجرمة وما أنا بلصة . أنا لن أمد يدي إلى صندوق إنسان غريب . فالصندوق ذاك صندوق والدي . والمال ماله . أي أنه مالي أنا ..

وعاد الاطمئنان إليّ وقد وصلت بتفكيري إلى هذا الحد.

وعزمت أخيراً العزم الأكيد على تنفيذ الخطة الموفقة ..

ووقفت . وهممت بالدخول إلى غرفة والدي وقد عزمت على أن أفتح الصندوق الحديدي وأتركه مفتوحاً ثم اعيد المفتاح إلى خزانة والدي لأنه لم يكن باستطاعتي الدخول إلى غرفة والدي ليلاً ووالدي نائم في غرفته ..

سأفتح الصندوق الآن . ادخل إلى غرفة والدي وافتح الخزانة الخشبية واتناول مفتاح الصندوق الحديدي ثم أدخل إلى غرفة المكتب وافتح الصندوق واتركه مفتوحاً وأعود إلى غرفة والدي لأعيد المفتاح إلى الخزانة .. وفي الليل ، بعد ان ينام الجميع أتسلل إلى المكتب وأغرف المال من الصندوق الحديدي ثم احمل حلاي وجواهري وثيابي وأطير إلى فؤاد .

ولكن لاح في رأسي خاطر أوقفني عن المسير إلى غرفة والدي ..

ووقفت افكر ماذا سيكون إذا دخل والدي إلى مكتبه بعد الغداء وشاهد الصندوق الحديدي مفتوحاً ؟

قد يخيل إليه انه نسي الصندوق مفتوحاً. هو لن يشك بي، إلا انه سيعمد إلى اقفال الصندوق ، وعندئذ يتعذر عليّ أن أعود إلى فتحه ..

اذن ؟. اذن ماذا ؟. اذن عليّ ان أنتظر إلى الليل ..

لن أفتح الصندوق الحديدي إلا بعد ان أتأكد من ان والدي لن يدخل الى مكتبه ولن يشاهد الصندوق مفتوحاً .

وعدت إلى الجلوس على السرير لأعود إلى التفكير من جديد ..

وارهقني التفكير. وشعرت بضيق في صدري فخرجت من الغرفة لأدخل إلى المطبخ واساعد امرأة عمي في تهيئة الطعام.

وقضيت طيلة قبل ظهر ذلك اليوم في المطبخ ..

وعند الظهر عاد والدي وعمي وكان وحيد قد استيقظ من نومه . لم يكن من عادة وحيد ان يستيقظ إلا والشمس قد توسطت كبد السماء ، فجلسنا نتناول طعام الغداء .. ونتبادل شتى الأحاديث والأخبار .

ومضى ذلك النهار ثقيلاً بارداً بطيئاً على قلبي .

لم اخرج من القصر ، كنت انتقل من غرفتي إلى الصالون، ومن الصالون إلى البهو ، ومن البهو إلى الشرفة لأعود إلى غرفتي من جديد ، وأنا أرقب حلول المساء بفارغ صبر .

ولم أكن قلقة ، لم أكن مضطربة ، لم أكن خائفة ، بل كنت ضجرة يغمر السأم والملل قلبي ..

وعندما بدأت الشمس تتأهب للأفول وقفت على الشرفة لأشاهد مواكب الفلاحين في عودتهم إلى أكواخهم ومنازلهم..

ومن بعيد شاهدت فؤاداً عائداً مع الفلاحين وهو يحمل فأسه على كتفه ويسير على مهل وكأنه يحمل على عاتقيه هموم الدنيا كلها .

واقترب فؤاد من الشرفة ، وشاهدني ، إلا انه أشاح بوجهه عني وتابع سيره ، لم يكن فؤاد يريد أن يلفت إليه الأنظار وهو ينظر إليّ .

وشعرت بقلبي ينبض بشدة واندفاع ، وأنا اشاهد فؤاداً في سيره الحثيث ، والهم يثقل عاتقه ، ودمعت عيناي ، وهمست في سرّي : لا بأس ، غداً سنكون يا فؤاد بعيدين عن هذه الربوع ، وبعيدين أيضاً عن الآلام والدموع .

وتدحرجت الشمس وراء الأفق البعيد تاركاً جبال لبنان ووهاده بين أحضان الظلام ، وشعرت بالظلام يتسلل عبر الطبيعة الهادئة الساكنة الهاجعة الى صدري ، وألقيت بجسدي الواهي الى المقعد والدموع تترقرق في عيني .

ولم يطل جلوسي على ذلك المقعد ، فإذا بي أنهض لأتسلل على مهل الى غرفة والدي ، وشخصت الى الخزانة ففتحتها وتناولت منها مفتاح الصندوق الحديدي ودسسته في جيبي. ثم خرجت من الغرفة لأشخص الى المطبخ كي أتأكد من انشغال امرأة عمي.. وكانت امرأة عمي منصرفة الى مساعدة الخادمة

في تهيئة طعام العشاء فقلت لها : هل أستطيع ان أساعدك يا امرأة عمي ؟

وابتسمت ، وهمست : سلمت يداك ياحبيبتي . لا . ليس لي إليك حاجة .

وخرجت من المطبخ لأسرع الى المكتب ..

وبقدمين واهيتين مرتجفتين اقتربت من الصندوق الحديدي ... وبيد ترتجف فتحت الصندوق ، ثم اسرعت بالعودة الى غرفة والدي لأعيد المفتاح الى الخزانة .

ومن غرفة والدي عدت الى الشرفة .

وعدت الى الجلوس على المقعد ، والقلق يعصف بي والهواجس السوداء تسدل على قلبي وشاحها القاتم الرهيب ..

كنت في حالة نفسية رهيبة ، كنت أشعر في أعمق أعماق نفسي بهول الجريمة التي رسمتها والتي عزمت على تنفيذها . الا ان ذلك الشعور المخيف لم يكن ليردعني عن تنفيذ الخطة المرسومة .

لقد عزمت على اختلاس أموال والدي والهرب مع فؤاد ولن تقف قوة بيني وبين ما عزمت عليه .

وبعد قليل أطل والدي وعمي .. واقترب والدي مني

ليقبلني ويجلس قربي هامساً :

— : ما بك يا حبيبتي ؟ لماذا تجلسين وحدك هنا ؟

— : انني اشعر بالراحة في جلوسي على هذه الشرفة يا والدي الحبيب .

— : لكن، ليس ثمة ما يريح الأعصاب ويهدىء الخاطر مثل مرأى جمال الطبيعة . ان الطبيعة صورة الله يا سلوى ، الله سبحانه وتعالى ، يطل علينا عبر الجبال والوديان والتلال والسفوح والوهاد ، انه عزّ وجلّ ، يطل علينا عبر السحاب والغمام والماء والهواء .

واذا بامرأة عمي تطل علينا لتقول : العشاء جاهز .. تفضلوا .

ونهضنا .. ودخلنا الى قاعة الطعام .. وكالعادة ، بدأت افكر بفؤاد وأنا اتناول شهي الطعام الذي أعدّته لنا امرأة عمي : ماذا يأكل فؤاد الآن ؟..

وغصصت .. لقد علقت اللقمة في حلقي . انني لأتناول شهي الطعام في حين يأكل حبيبي الخبز الجاف ... يا لحكمتك القريبة العجيبة الغامضة يا الهي !

• وانتهينا من تناول الطعام .. وعدنا الى الجلوس على الشرفة حيث تناولنا القهوة .. وراح عمي ووالدي يتحدثان

في أمور المزرعة والعمال والعمل في حين راحت امرأة عمي تحدثني في بعض القضايا المنزلية ، وكنت أتظاهر بأنني مهتمة بحديثها في حين كنت أفكر بطريقة الهرب . كنت أرسم في خاطري كل خطوة سأخطوها بعد أن ينام الجميع والخوف والقلق مستبدّان بي .

وشعرت بأنني أجلس على إبر وشوك وأنا أجلس على المقعد الوثير فتظاهرت بأنني مثقلة الأجفان ورحت أتثاءب . فقالت لي امرأة عمي : يبدو أن النعاس بدأ يشدك الى النوم، قومي الى سريرك يا حبيبتي .

ونهضت .. وهمست :

— : تصبحون على خير ..

ودخلت الى غرفتي ، لا لأنام ، بل لأفتح خزانتي فأخرج منها حلاي ونقودي وبعض ثيابي فأضعها في حقيبة صغيرة كنت أضع فيها ثيابي المدرسية وكتبي .

وأقفلت الحقيبة وجلست على السرير ..

وحانت مني التفاتة الى صورة أمي الجاثمة على منضدتي قرب سريري فتناولت الصورة أحدق فيها من خلال دموعي وأهمس : أمي ! سامحيني ..

تلفظت بهاتين الكلمتين عفواً ، ودون شعور .. ترى هل

كانت روح امي تناديني تلك الساعة وتحاول ان تثنيني عن عزمي ؟

ودست صورة امي في صدري ، سآخذ أمي معي ، لن اتركها وحيدة في غرفتي ..

ورحت ارقب هدوء الدار وسكونها ، رحت انتظر ان ينام الجميع .. ليس لي ان اخطو خطوة قبل ان اتأكد من ان السكون لفّ غرف الدار كلها .

وطال انتظاري .. واخيراً ، وبعد انتظار ممض عميق بعيد سمعت خطواتهم ، خطوات والدي ، وعمي ، وامرأة عمي ..

وايقنت ان والدي وعمي يسيران الى غرفتيهما .. الا ان خطوات امرأة عمي بدأت تقترب من غرفتي ، فأدركت انها قادمة اليّ لتطمئن على هنائي وسلامة نومي .

وقذفت بالحقيبة الى تحت السرير ، ثم اندست تحت اللحاف ورفعته الى ما فوق رأسي متظاهرة بالنوم .

وبكل هدوء ، فتحت امرأة عمي الباب .. وشاهدتني غرقى في نومي ، فاطمأنت .. وخرجت .. الحمد لله على السلامة .. ثم اغلقت الباب وراءها .

وتنفست الصعداء .. ووثبت من السرير وسحبت الحقيبة وجلست أنتظر .

وإذا بالأنوار تطفأ في الدار .. وعم السكون أرجاء دارنا .. الكل استسلم الرقاد .

ونهضتُ .. وفتحت الباب على مهل ، وعلى مهل أيضاً تسللت من غرفتي وأنا أحبس أنفاسي .. وشخصت إلى مكتب والدي لأتجه نحو الصندوق الحديدي والظلام يحيط بي من كل جانب .

ترى ، ألا يزال الصندوق الحديدي مفتوحاً أم أن والدي أقفله ؟..

وتلمستْ يداي الصندوق الحديدي فاذا به لا يزال كما تركته ، غير مقفل ..

وفتحت الصندوق الحديدي .. ورحت أبحث داخله عن الأوراق النقدية ، والظلام يحول بيني وبين ما في الصندوق . ولمست يدي رزمات من الأوراق تأكدت من أنها أوراق نقدية ، وأمسكت بها ، ورفعت عدة رزمات صغيرة ، وحملتها ، وسرت مغمورة بالظلام الدامس على مهل وأنا أخشى أن يرتفع لخطواتي صوت ..

وخرجت من المكتب لأعود إلى غرفتي وأشعل النور الواهي الضئيل، نور المصباح المثبت فوق سريري .. وشاهدت الأوراق النقدية بين يدي .. كان ثمة عشر رزم .. في كل رزمة ألف ليرة لبنانية .. إذن لدي الآن عشرة آلاف ليرة

لبنانية .. إنها ثروة .. وفتحتُ الحقيبة أدس فيها الأوراق النقدية ثم أقفلها بحذر وأحملها ، وأطفىء النور ، وأسير ..

وسرت في ظلام دامس .. سرت بكل خشية وحذر نحو الباب .

وبكل حذر أيضاً فتحت الباب وخرجت من تلك الدار التي آوتني وحنت علي ، خرجتُ منها كما يخرج اللصوص تاركة ورائي في تلك الدار فضيحة كبيرة وعاصفة عاتية هوجاء تحطم سمعة اسرة نبيلة وكرامة والد حنون أغدق علي العطف والحب والحنان .

وشخصت إلى الاسطبل، دون أن التفت ورائي ، ودون أن يرف لي جفن . كان تفكيري كله منصرفاً إلى فؤاد ، الى حبيبي فؤاد ، كنت في تلك الساعة أفكر بالأيام الجميلة الرائعة البهاء التي سأقضيها معه بعيدين عن ذلك الجو الموبوء الذي نعيش فيه .

كنت أحلم ، تلك الساعة ، بالسعادة الوارفة الظلال التي ستغمرني وتغمر حبيبي بعد أن نتزوج ونعيش في ديار بعيدة نائية عن هذه الديار .

ووصلت الى الاسطبل ، فدفعت الباب بيدي ودخلت .

كان فؤاد تلك الساعة ممدداً فوق فراش القش يدخن .. ويفكر .. من المؤكد أنه كان يفكر بي .



هكذا تصوّرت أنني سأعيش

ووجم وهو يشاهدني أدخل عليه في تلك الساعة المتأخرة من الليل ، وأنا أحمل حقيبتي .

ووثب اليّ هامساً : سلوى ؟..

كلمة واحدة تلفظ بها فؤاد : سلوى ؟.

قالها باستفهام ، فكأنه لا يصدّق ما يرى . لا يصدق أن سلوى تحمل حقيبتها وتدخل عليه .

كان من عادتي أن أحمل اليه الطعام والحلوى . أما أن أحمل اليه حقيبة ، فهذا ما أبى فؤاد أن يصدقه !

واقتربت منه ..

وألقيت بالحقيبة من يدي فوق كومة القش وارتميت بين ذراعيه ..

وطوّقني بيديه ، وشدّني الى صدره بحنون .. وهمس :

« سلوى !.. ما بك ؟.. لماذا جئت اليّ في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل، وماذا تحملين في هذه الحقيبة » ؟

كان يلقي عليّ أسئلته دون أن يترك لي مجال الرد على سؤال واحد .

وقبل أن أجيب على أسئلته رفع رأسي عن كتفه بيديه القويتين وراح يحدّق في عينيّ .

لا أعلم ماذا شاهد فؤاد في عينيّ على ضوء سراجه الواهي المبحوح النور ..

وسمعته يهمس في أذني بعد فترة صمت قصيرة :

-: ماذا فعلت يا سلوى؟ ماذا فعلت يا حبيبتي ؟ وهمستُ :

- : لقد انتهى كل شيء . أنا لن أعود الى ذلك القصر المظلم الرهيب ، لن أعود الى والدي . سأعيش وإياك العمر كله يا حبيبي .

وتراخت يداه عن خدي .. وتراجع الى الوراء ، وهمس، بخوف وذعر ووجل : « لا .. لا .. لا .. عودي الى قصرك يا سلوى . عودي إلى والدك ، عودي الى عالمك البعيد كل البعد عن عالمي الوضيع . دعيني .. دعيني .. دعيني .. حرام عليك ، لا تعذبيني » .

واقتربت منه أضمه الى صدري وأهمس في أذنه :

- : أنا أعذبك يا حبيبي؟ فليغيّبني القبر إن أفكر بتعذيبك.

فعاد الى الهمس : ماذا فعلت ؟.. ماذا فعلت ؟.

وجلست فوق كومة من القش .. وأمسكت بيده أشدها هامسة : « اجلس .. اجلس هنا قربي » .

وجلس .. فقلتُ :

- : لقد نفذت ما عزمت عليه ، حملت ثيابي وجواهري

ومالي وجئت اليك . سننأى عن هذه الربوع ، عندما يبزغ الصباح نكون قد توارينا عن هذه القرية وأصبحنا في مأمن من شرهم وخطرهم .

ولمع الذعر في عينيه ، فلم آبه له ، وعدت الى الكلام :

— : فؤاد !.. لا تحاول إقناعي بالعودة الى القصر ، لقد اتخذت قراري ولن أعود عنه . معك سأعيش العمر كله . سنهرب ، سنسافر الى بلاد بعيدة نعيش فيها عيش الأزواج السعداء . أنت حبيبي ولن أستطيع العيش بعيدة عن حبيبي .

وصمت فؤاد ..

وصمتُ أنا أيضاً ..

وإذا بيده تمتد الى الحقيبة فيفتحها ..

ووقعت عيناه على الجواهر والحلى والمال فاشتدّ الذعر به ، وأقفل الحقيبة بخوف وذعر ، ودفعها عنه كأنه يدفع عنه بأفعى .. ونهض مبتعداً عني وهدر :

— : ماذا فعلت يا سلوى ؟ أتدفعين بي الى الجريمة ؟ أتهوين بي من أعالي الفضيلة والنبل والشهامة ، الى مهاوي الشر والخطيئة ؟ أتريدين حبيبك مجرماً ؟ أتريدينه لصاً يا سلوى ؟. لا . لا . وألف لا .

وبدا ثائراً عاصفاً . فاقتربت منه أمسك بيده قائلة :

— : فؤاد !.. ليس في ما أقدمتُ عليه أي إثم ولا أية خطيئة . أنا لم أسرق ، ولم أدفع بك الى الشر . المال مالي والجواهر والحلى جواهري وحلاي . لقد جئت بما أملك اليك لنهرب معاً ، لأنقذ قلبينا ، لأنجو بسعادتنا . تعالَ . تعالَ . تعالَ يا حبيبي قبل أن يدهمنا الوقت .

وأفلتت يده يدي وهمس :

— : سلوى ! أستحلفك بحبنا الطاهر الشريف النبيل أن تعودي إلى قصرك ، أنا لن أهرب بك كاللصوص المجرمين . لا لن أمد يدي الى مال ليس مالي . لن أغادر هذه المزرعة إلا وقد وفيت ما لوالدك من مال في ذمّة والدي . لن أخطو خطوة واحدة خارج هذه الأرض إلا بعد سنة ، بعد سنة كاملة لا تنقص يوماً واحداً .

— : أتريدني أن أنتظر سنة كاملة ؟ سنة وأنا في مثل هذا العذاب ، وأنت في مثل هذا الشقاء ؟ لا . لا وألف لا . أنا لن أعود الى القصر ، لن أعود . أتفهم ما أقول ؟..

وثرت .. وكانت تلك الثورة ، الثورة الأولى والأخيرة التي ثرتها أمام فؤاد .

وتقدّم مني وضمني الى صدره برفق وحنان وهمس : سلوى !.. لن نفترق يا حبيبتي ، إنني أقسم لك بأنني سأفعل ما تريدين وسأرحل معك الى حيث تريدين يوم أصبح حراً .

أنتِ ، في إصرارك على الهرب الآن تدفعين بي الى السجن ، إن والدك سيلاحقنا قضائياً . سيقبضون عليّ بتهمة الهرب والاحتيال ويقبضون عليك بتهمة السرقة والاختلاس . ماذا ستكون حالي وحالك وقد زجوا بنا في أعماق السجون ؟ ماذا ستكون حال والدك وقد علم أن ابنته سرقت ماله وهربت مع خادمه ؟. فكري ملياً بالأمر يا حبيبتي .

— : وهل ستتغير الحال بعد سنة ؟.

— : بعد سنة أكون قد وفيت أباك ماله ، سأكون حراً. سأمسك بيدك وأسير بك إلى بعيد ، ستسيرين معي وأنتِ فارغة اليدين ، لا مال ولا جواهر ولا حلى . أنتِ جوهرتي الوحيدة ، أنتِ مالي ، أنتِ كل ما أملك في هذه الحياة يا حياتي . يومذاك لن يستطيعوا أن يقبضوا عليّ بتهمة الاحتيال ، ولا أن يقبضوا عليك بتهمة الاختلاس .

فلم اقتنع ، بل قلت : لن أعود . تعالَ معي. لقد اتخذت قراري ، ولن أعود عنه .

فردّ بعزم وعناد : اسمعي ، لن أخطو خطوة واحدة من هنا . إذا أصررتِ على موقفك فأنا سأنتحر ، سأموت . الموت أهون عندي من ارتكاب مثل هذه الجريمة .

وأيقنت انني لن استطيع إقناعه ، وصمتّ . لم يعد لي إلا

أن أنزل عند اصراره . سنة ؟. لا بأس سأنتظر سنة وليساعدني الله على احتمال الألم والعذاب طيلة هذه السنة .

وطال صمتنا . لا هو تكلم ، ولا أنا . وبدأت أنوار الفجر البعيد تتسلل إلى الإسطبل . فأمسك فؤاد بيدي يلثم راحتها ويمرغ شفتيه بها ويهمس : يا حبيبتي !..

وارتميت على صدره ، وأجهشت بالبكاء .

وراح يكفكف دموعي .. وهمس: عودي الآن ياحبيبتي، عودي قبل أن ينبلج الصباح ويفضح الضياء سرنا ..

ودون أن انبس بحرف ، حملت حقيبتي وتسللت من الإسطبل لأعود إلى القصر بكل حذر واتئاد ...

كان الكل نياماً ، والسكينة تغمر أرجاء القصر ، والهدوء الشامل يلف أرجاء قاعات القصر كلها . وكانت أنوار الصباح البعيد قد بدأت تسكب على هذه المزرعة ، ضوءها الأبيض الواهي الضئيل ، فدخلت تواً إلى مكتب والدي .

وكان الصندوق الحديدي ما زال مفتوحاً فأعدت إليه المال ، ودفعت بباب الصندوق فأقفل ..

وعدت إلى غرفتي لأعيد الحليّ والجواهر والثياب إلى خزانتي ، ثم استلقي في سريري واجهش بالبكاء .

٦

صمتت سيدة القصر المنيف برهة ، أخذت خلالها تمسح دموعها التي بدأت تتدحرج على وجنتيها . فقلت متلعثماً :

— : أرجو المغفرة يا سيدتي لأنني أثرت ذكرياتك المؤلمة الرهيبة .

— : ذكرياتي أبداً أمـــام عيني . لم تبتعد عني دقيقة واحدة ، إنني فيها ولها . أنت لم تثر هذه الذكريات ياسيدي ، ولم تعذبني . لقد كنت بحاجة إلى الكلام . كنت أشعر أن صمتي يزيد عذابي . كنت أريد أن اتكلم إلا إنني لم أكن أجد الأذن التي تستحق أن تستمع إلى كلامي . إني أشكرك لأنك حققت رغبتي الخفية ودفعتني إلى البوح بهذه الأسرار قبل أن تنزل معي إلى القبر .

— : وبعدئذٍ ، ماذا حدث ؟

فقدمت لي لفافة ، وألقت بلفافة بين شفتيها . وقالت :

— : بعدئذٍ ماذا حدث !! ما حدث كان رهيباً .

استفقنا في الصباح فلم نجد فؤاداً في المزرعة ... لقد اختفى فؤاد .

وغضب والدي شديد الغضب، وثار عمي قائلاً : « يا له من مجرم شرير. هرب قبل أن يفي ما لنا بذمة والده من دين. إنه لص حقير » .

وسمعتهما يهددان ويتوعدان . وكنت في ذهول . كيف هرب فؤاد ؟.. ولماذا ؟.. لماذا هرب ولماذا تخلى عني ؟ لماذا تركني فؤاد وحيدة في عذابي وآلامي ودموعي ؟

وكان غضب والدي وعمي شديداً . فهما قد خسرا في فؤاد عاملاً نشيطاً وخادماً أميناً . وقال عمي :

— : سوف نقيم عليه الدعوى ونطلب ملاحقته واعتقاله . هذا شاب مجرم شرير . السجن مقره .

وقال والدي : السجن قليل فيه . والله إذا وقع في يدي لأحطمنه شر تحطيم . يا له من سافل حقير لئيم !

وهززت رأسي أسفاً واشفاقاً عليهما . ماذا كانا يقولان لو علما أن فؤاداً رفض الهرب معي ليلة أمس وصان سمعتها وكرامتها ومالها ؟

وأسرع والدي إلى مخفر الدرك القريب من هذه المزرعة يدعي على فؤاد بالسرقة . لقد ادعى زوراً وبهتاناً ان فؤاد ابن سليم العاصي سرق ماله وهرب من مزرعته .

وبدأ رجال الدرك البحث عن فؤاد .. وكنت في سرّي أتمنى أن يعثر رجال الدرك على فؤاد . كنت أتمنى أن يجدوا فؤاداً وأن يعيدوه إلينا . كنت اريد أن يعود فؤاد إليّ ، ولو وقع بين أيدي رجال الأمن .

ماذا سيحدث إذا اعتقل رجال الدرك فؤاداً ؟

سيرسلونه إلى السجن ، إلّا إن والدي ، وهو بحاجة إليه ، سيسعى إلى اطلاق سراحه ، ويعود به إلى المزرعة ، وهذا ما كنت أرجوه .

وطال بحث رجال الأمن عن فؤاد العاصي ، إلّا انهم لم يقفوا له على أثر . لقد طار فؤاد بين الأرض والسماء .

وضاقت الدنيا في عيني ، وقد أدركت ان فؤاداً ابتعد عني . لقد خسرت فؤاداً . ترى هل هو سيعود ؟

لست أدري ... لست أدري .

ورحت أزور تلك الأماكن التي كنت أجلس فيها مع فؤاد ... الصخرة العالية ، الحرج ، الطريق الضيق الملتوي البعيد الممتد من قصرنا إلى تلك الصخرة . الإسطبل ...

وكثيراً ما كنت أدخل إلى الاسطبل لأجلس فوق فراش القش الذي كان فؤاد ينام عليه . أجلس على ذلك الفراش وأبكي ...

لقد ترك فؤاد لي الألم والدمع والعذاب . كل يوم يمر كان يزيد الحزن والألم عمقاً واتساعاً في قلبي .

إلا أن قبساً من أملٍ واهٍ ضئيل كان يلمع من حين إلى آخر في قلبي . كان يخيل إليّ إن فؤاداً سيعود يوماً فيمسك بيدي ليقول : « تعالي معي يا سلوى . تعالي لنبتعد عن هذه الربوع إلى حيث نعيش عيش الأزواج السعداء » .

غير ان هذا الحلم البعيد لم يتحقق .

ومضت الأيام والشهور وفؤاد لم يعد ، لا هو عاد ولا عثر رجال الأمن على أثر له .

وبعد زهاء سنة على اختفاء فؤاد نزلت بي مصيبة جديدة. فقد عزم والدي وعمي على أن يعلنا خطوبتي على وحيد ابن عمي .

وفيما كنت أجلس ذات صباح قرب والدي وامرأة عمي وعمي نرشف القهوة التفت والدي إليّ وقال : « سلوى!. لكِ هنا بشرى سارة » .

فأرهفت أذني للاستماع إلى تلك البشرى السارة، إلا أنني لم أسمع بشرى ، بل سمعت نعوة ، نعوة قلبي ...

قال والدي : بعد اسبوع واحـــد سنعقد خطبتك على وحيد . وبعد ثلاثة اشهر سيتم زفافكما الميمون .

وذُعرت ، وظهر الذعر جلياً في عيني ، وعقدت الدهشة لساني ، فلم استطع ان اتلفظ بحرف .

وخيل لهم ان الفرح عقد لساني ، إلا انهم دهشوا وهم يسمعونني اتمتم : لا .. لا.. لا.. وتمتم والدي :

ـ : ماذا تقولين يا سلوى ؟

ـ : أنا لا أريد الزواج ، لا أريد أن أتزوج يا والدي .

وانتقلت امرأة عمي من جوار زوجهـــا لتجلس قربي وتقول : ألا تريدين أن تتزوجي من وحيد يا سلوى !

قلت ، والدموع تتأهب للأنحدار على وجنتي : لا أريد أن أتزوج ، لا من وحيد ولا من غير وحيد .

فأمسكت امرأة عمي بيدي وتمتمت :

ـ : سلوى ! . أخبريني يا ابنتي ، لماذا لا تريدين وحيداً زوجاً لكِ .

لقد ادركت امرأة عمي ان رفضي الزواج من وحيد يعني ان هناك من يجلس على عرش قلبي غير ابنها . كانت امرأة ذكية إلى أبعد حدود الذكاء ، كانت تدرك ان ثمة سراً وراء رفضي الزواج من وحيد .

قلت : أنا لم أقل انني لا أريد وحيداً زوجـــاً لي . لقد قلت ، وأعيد القول انني لا أريد الزواج لا من وحيد ولا من غير وحيد .

قال والدي : سلوى !. الزواج هو نهاية كل فتـــاة ... مصيركِ الزواج يومـــاً يا ابنتي . إن أنتِ لم تتزوجي اليوم فستتزوجين غداً . كلنـــا متفقون على أن تكوني لابن عمك وحيـد ، وليس لك أن تعترضي على قرار أجمعنا كلنـــا على اتخاذه .

وانفجرت الدموع من عيني ... فأمسكت امرأة عمي بيدي وقالت : تعالي .. تعالي معي .

وسرت معها ...

ودخلنا إلى غرفتي فأجلستني امرأة عمي على السرير وجلست إلى قربي لتقول :

ـ : سلوى !. لا تخفي عني أسراركِ . أنا بمثابة أمك يا حبيبتي . قولي لي كل شيء . من هو ذاك الشاب الذي تحبينه والذي تريدينه زوجاً لكِ .

ـ : ليس ثمة أي شاب في حياتي يا امرأة عمي .

ـ : لا تكذبي عليّ . أنا كنت فتاة مثلك ، وأعرف أسرار وخفايا قلوب الصبايا . إن الفتاة التي ترفض الزواج من شاب اختاره أهلها لها هي فتاة عاشقة ولمن تحب شاباً غير

الذي اختاره لهـــا أهلها . قولي لي من هو هذا الشاب وأنا أقنع والدك في الموافقة على زواجك من حبيبك .

ولم يكن من المعقول أن أقول لها اسم ذلك الشاب . لم أكن بلهاء لأبوح لها باسم فؤاد فقلت :

— : ليس هنـاك أي شاب . كل مـــا في الأمر أنني لا أرغب في الزواج الآن .

— : اسمعي يا سلوى . إن وحيداً يحبك ، ويخيل إليّ أنك تحبينه أيضاً . وحيد ابن عمك سيضيع منّا ومنك. لقد اكتشفنا أنه على علاقة أثيمة براقصة فرنسية تعمل في أحـد الملاهي . نريد أن ننقذه من هذه الفرنسية . إن زواجه منك يبعده عن تلك الراقصة ويعيده إلينا وإليك .

فأدركت السبب في استعجال موعد الخطوبة والعرس .

قلت وأنا أحاول التملص من الموافقة على قرارهم :

— : ومن يضمن لي أنه سينقطع عن حبيبته الفرنسية بعد أن يصبح خطيبي ثم يصبح زوجي .

فلمعت ابتسامة خبث ودهـــاء على شفتي امرأة عمي ، وهمست :

— : يا خبيثة . تحبينه وتغـــارين عليه ؟. اسمعي يا حبيبتي . وافقي الآن على عقد الخطوبة . سنختبره طيـــلة مدة الخطوبة . فإذا ما لاح لنا أنه ما زال على علاقته الأثيمة بحبيبته الفرنسية فسخنا الخطوبة ورفضنا الزواج ، والخطوبة

لا تعني الزواج ، وهي ليست ارتباطاً وثيقاً أبدياً ، أما إذا برهن لنا عن إخلاص وحب ووفاء فلا يعود لدينا أي عذر في قبوله زوجاً .

وصمتت ...

يبدو أنه مـــا زال لديّ متسع من الوقت للتملّص من الزواج ..

لا بأس سأوافق على عقد الخطوبة ، وسأجد ألف عـذر وعذر لفسخ هذه الخطوبة في المستقبل القريب .

وعادت امرأة عمي إلى الكلام بعد صمت قصير :

ـ : ما هو رأيك يا سلوى ؟ هل توافقين على ما أبديت ؟

قلت ، وأنا أمسح دمعة تدحرجت على خدي :

— : كما تريدين يا امرأة عمي

وارتسم الفرح على جبينها .

وضمتني الى صدرها وقبلتني وهمست : فليحرسك الله لنـا يا حبيبتي وليفرش طريقك بالزهور والورود والرياحين .

***

وتمت الخطوبة ..

وأصبحت خطيبة ابن عمي وحيد ..

وأخذت أراقب الفرصة السانحة لأطالب بفسخ الخطوبة .

كنت أنتظر أن يغضبني وحيد ، أن يقسو عليّ مرة بكلمة ، أن يتغيب عن القصر يوماً أو يومين ، أن يطيل السهر ، أن يعود سكران ذات ليلة .

إلا أن وحيداً خيّب الأمل ، فلم يترك لي مجالاً للثورة والغضب .

كان وحيد مثال الخطيب المخلص الوفي الودود .

كان يحيطني بعطفه وبحبه وبحنانه .

وتبرمتُ ، وسئمت تلك الحال .

وبدا الحزن الشديد على وجهي .

كان غياب فؤاد يعذبني . كان خياله أمامي أنى سرت وكيفما اتجهت . لم أكن لأعرف السعادة وفؤاد بعيد عني .

وكثيراً ما كنت أفيق من نومي ليلاً لأجد وسادتي مبللة بالدموع .

إنني لأعيش قرب خطيب لا أحبه ، ولا أرتاح إليه ، وأنا بعيدة عن حبيب أحبه وأتفانى في حبه وأذوب في هواه .

أي عذاب أشد وأقوى من عذابي الأليم ؟

ومضت الأيام ثقيلة على قلبي . كل يوم يمر تزداد فيه نار الشوق اتقاداً في فؤادي .

وأخذ موعد العرس يقترب .

ومع اقتراب ذلك الموعد يقترب اليأس مني .

كلما اقترب موعد العرس ابتعد عني الأمل في لقاء فؤاد.

وضاقت الدنيا في عيني ، وأظلمت الحياة .

وشاهدت حبي يقع صريعاً أمام عيني فنقمت على الجميع ، على والدي ، وعلى عمي ، وعلى امرأة عمي وعلى خطيبي، وعلى نفسي .

لقد شعرت بأن الجميع أصبحوا أعدائي .

حتى أنا أصبحت عدوة نفسي .

وكرهت الحياة ، هذه الحياة التي تثقل عاتقي وتشدني الى التراب وتبعدني عن حبيب القلب والروح . فاتخذت قراراً رهيباً : « إن العرس لن يتم . أنا لن أكون لغير فؤاد » .

إمّا أن أكون لفؤاد وإما أن أكون للقبر .

إذا لم يسعدني الحظ بالزواج من فؤاد فأنا سأنتحر ، سأشرب السم وأتخلص من حياتي .

وبدأت أبحث عن السم ؟.

أين سأجد السم ؟.

أين ؟.. في الدواء السام الذي يكافح به والدي وعمي الأمراض الزراعية ؟.. بالديمول .

وطلبت من أحد الفلاحين أن يأتيني بكمية من الديمول ، وكان الديمول يومذاك عزيزاً غالي الثمن - وهو سم قاتل فتاك - فدهش الفلاح وأنا اطلب إليه أن يأتيني بكمية قليلة من هذا السم .

وشاهدت الدهشة في عينيه فقلت له : أريد أن أضع الدواء في بعض أرجاء الدار لمكافحة الحشرات .

وتمتم الفلاح : أمرك مطاع يا سيدتي ، سأحضر لكِ ما تطلبين ، ولكنني ألفتك إلى أن هذا الدواء سام قاتل فتاك . كوني منه على حذر ، واحذري أن يتسرب شيء منه إلى يديك أو إلى طعامك أو إلى ثيابك .

قلت : اطمئن . لا تخف انني أدرك مدى خطره .

وجاءني الفلاح بما طلبت ..

جاءني بزجاجة صغيرة فيها سائل أحمر اللون .

واخذت الزجاجة وخبأتها في غرفتي . هذه الزجاجة تحتوي على حل معضلتي ، وهذا السائل الأحمر فيه نجاة قلبي ونهاية عذابي .

ورسمت خطة النجاة : سأنتظر . أنا لن انتحر اليوم ، ولا غداً ولا بعد غد . سأنتظر حتى يوم العرس .

يوم عرسي سيكون يوم جنازتي ، وسيبكون ... كلهم

سيبكون . لن أتيح لهم فرصة الضحك والفرح . سيشيعونني إلى القبر في اليوم الذي يأملون أن يزفوني إلى عريسي .

يوم عرسي سيكون يوم مأتمي ، فليهنأ والدي وليطمئن خاطر عمي ، ولتزغرد امرأة عمي ، وليفرح وحيد ...

وأقت أرقب ذلك اليوم بفارغ صبر .

كنت أتوق إلى ذلك اليوم ، إلى يوم عرسي ، يوم موتي .

وقطعت الأمل من عودة فؤاد ، وقد أشرف موعد العرس على البزوغ .

ليس ثمة بيني وبين موعد العرس سوى اسبوع واحد . اسبوع واحد فقط ، وينتهي كل شيء .

وفيما وحيد يرقب ذلك اليوم بفارغ صبر ،

وفيما والدي وعمي وزوجته يستعدون لحفلة الزفاف ويوزعون بطاقات الدعوة على الأهل والأقارب والأصحاب ، كنت أنا أستعد لمغادرة هذه الحياة .

ولم أكن خائفة . لم أكن وجلة ، بل كنت فرحة ، كنت مرتاحة كل الارتياح .

كنت آمل أن أجتمع بفؤاد في العالم الثاني ، في عالم الأرواح ، حيث لا ذهب ولا مال ولا مقام يفرق بين الأحبة ، ويقف حائلاً بين القلوب الهائمة الولهى .

إلا أن خطة الانتحـــار لم يقدّر لها النجاح ، لم أنتحر ، ولم أمد إلى زجاجة الديتول يداً ..

كانت الأقدار ترسم خطتها في حين كنت أرسم أنا خطتي ، والأقدار تخط سطورها في حياتنا وترسم خطوطها دون أن يكون لنا رأي فيها .

يا لسخافة الانسان ويا لصغر عقله ، يرسم ويخطـــط ، ويشيد ويبني الآمـــال ، فاذا بالأقدار تطل عليه من وراء الغيب لتهدم كل ما بنى وشيد ، وتذري آماله وأمانيّـــه في مهب الرياح . في حين ينصرف الانسان الى جمع المال لينفقه على ملذاته وأهوائه ، يكون القبر على خطوة منه ، وفي حين يعدو الإنسان وراء أمل باسم ربّان يكون الموت متربصاً له يبتسم ويهزأ به . يأمل أن يسافر الى الغرب ، فيجد نفسه في الشرق . يحلم بالسعادة فيستفيق على الشقاء .. ويخشى الشقاء فيجد نفسه في صميم السعادة ..

للقدر كلمته الأخيرة في مصيرنا على هذه الأرض ، وليس لنا أن نعترض ولا أن نتمرد عليها ، ولعل تلك الكلمة، كلمة الأقدار ، هي كلمة الله ..

الله سبحانه وتعالى يلفظ فينا كلمته ، وهي كلمة مقدسة هائلة رهيبة لا اعتراض عليها ولا تمرّد ولا عصيان . علينا أن نحني رؤوسنا أبداً أمام تلك الكلمـــة ونقول : « لتكن مشيئتك مباركة يا الله » .

٧

صمتت سلوى ، وقد وصلت بكلامهـــا الى كلمة الله عز وجلّ .

وأشعلت لفافة نفثت دخانها في الفضاء ، وراحت تحدق بالنجوم التي كانت تلمع في الفضاء كأنها عيون تنظر الينا وتحدق بنا من وراء الغيب .

وطال صمتها ..

ولم أشأ أن أخدش صمتها بكلمة .

كنت أشعر أنها في صمتها الرهيب ذاك، تصلّي، وتخاطب تلك النجوم وتبثها أشواقها وحنانها وحنينها .

وانقضت دقائق قليلة قبل أن تلتفت اليّ وتقول :

– : يا لها من ذكريات مؤلمة ! ذكريات دامية دامعة ، ما زالت تغمر قلبي بالشوق البعيد وبالحنين العميق السحيق .

– : ما هو السبب الذي أهاب بك الى الابتعاد عن فكرة الانتحار ؟..

– : لقد عاد فؤاد ..

قالت هذه الكلمات الثلاث وهي تحدق في الفضاء الواسع الرحيب .

وعادت الى متابعة سرد قصتها المؤلمة ، الى سرد مأساتها قالت :

وعاد فؤاد قبل موعد العرس بإسبوع واحد ،

عاد ليفي ما بقي من دين والده لوالدي .

واستفقت ذاك الصباح في الساعة التاسعة ، بعد ليل قضيته ساهرة أبكي وأناجي حبيبي الممعن في النوى والبعاد .

وارتديت ثيابي وخرجت من غرفتي ..

ومررت أمام مكتب والدي فسمعت صوتاً أثار في قلبي الرعشة والذهول .

كان ذاك الصوت صوت فؤاد .

وأرهفت أذني وأنا أكاد لا أصدق ما أسمع : أأكون في حلم رائع زاهٍ فاتن جميل ؟.. وسمعت فؤاد يقول :

– : هذا مالك يا سيدي . هذا كل ما بقي لك في ذمة والدي . ليس لك بعد الآن أن ترغمني على العمل في مزرعتك . لقد وفيتُ المال .

وسمعت والدي يقول :

– : اسمع يا فؤاد . أنا على استعداد لأن أعطيك ما تريد لقاء عملك عندي . أطلب المرتب الذي تريده . لقد تعودت العمل عندنا يا ابني وتعودنا نحن على إخلاصك وتفانيك في خدمتنا . أرجو أن تعود الى هذه المزرعة التي نشأت وترعرعت فيها يا فؤاد .

وددت أن يوافق فؤاد على ما عرض والدي ، إلا أنني سمعته يجيب : لا يا أنيس بك . أنا لن أعود الى العمل هنا . إنني أعمل في بيروت وأنا مرتاح الى عملي هناك . أستودعك الله يا سيدي .

وعاد والدي الى محاولة الإقناع فقال : « ان ما تتقاضاه في عملك في بيروت لا يكاد يكفي أجرة المنزل والطعام . النفقات في بيروت باهظة يا ابني . قل لي ما هو المرتب الذي تتقاضاه هناك » ؟

وصمت فؤاد . فعاد والدي الى الكلام ليقول :

– : أنا على استعداد لأن أخصك بمرتب يفوق ما تتقاضاه من عملك في بيروت .

– : شكراً يا أنيس بك . شكراً على ما تبديه

نحوي . لقد قلت كلمتي . أنا لن أعود الى العمل في مزرعتكم. وداعاً يا سيدي .

– : اسمع يا فؤاد . اذا شئت يوماً أن تعود إلينا فثق أننا سنكون سعداء بعودتك .

– : شكراً .. وداعاً يا سيدي .

وسار فؤاد . وخرج من مكتب والدي ليفاجأ بي واقفة في البهو ، وأنا ارتجف كأنني ورقة شجرة تساقطت عن غصنها بين ايدي رياح تشرين .

لماذا كنت ارتجف ؟.. لست أدري ...

ووقف فؤاد يرتجف أيضاً .

ولم نستطع ان ننطق بحرف .

لا هو تكلم ولا أنا .

كان فؤاد يحدق بي ، وكنت انا أحدق به دون ان نستطيع التلفظ بكلمة واحدة .

وشاهدت الدموع تجول في مقلتيه .

كانت دموعه تتكلم .

أنا ما زلت أذكر حتى اليوم تلك الدموع التي كانت تموج في عيني فؤاد ذاك الصباح ، والتي كانت تعبّر عمّا يكن في صدره من لوعة وأسى وشوق وحنين .

كانت دموعه تنطق بألف بيان وبألف ألف حديث .

وتقدمت منه ، وأمسكت بيده لأهمس : فؤاد !. لماذا تركتني ؟. لماذا ابتعدت عني ؟. أتهون لديك سلوى يا فؤاد ؟

وهمس : سلوى !.. يا حبيبتي ...

ولاح لي منه انه يريد ان يحدثني بأشياء مهمة ، إلا إن وحيد ، ابن عمي ، أطلّ علينا فجأة فحال بينه وبين ما يريد أن يقول .

ووجم وحيد ، وهو يراني أقف قرب فؤاد .

ووثب إلينا هادراً في وجه فؤاد : ماذا تفعل هنا ؟..

وقبل أن يجيب فؤاد ، قبل أن يقول له « ماذا تفعل هناك » قال وحيد : عد إلى الاسطبل ...

ولم يجب فؤاد بحرف ، بل اكتفى بان رمق وحيداً بنظرة هزء وازدراء .

وأمسك وحيد بمعصمي يشده حتى كاد يسحقه وتمتم : « تعالي ... »

وسار مبتعداً بي عن فؤاد ...

وسار فؤاد ..

وخرج من القصر دون أن يعير وحيداً أي اهتمام ...

وحـــاولت ان أفلت معصمي من يد وحيد فعجزت ، وصرخت به : اتركني ... اتركني أيها الحقير .

وأثارته إهانتي فصرخ بي : « أنا حقير يا مجرمة ؟.. لقد مرغت سمعتنا وشرفنا بالوحول . ألا يكفيك ما قمت به من أعمال مشينة طائشة ؟ »

فعدت إلى محاولة إفلات يدي ، والثورة اللاهبة العاتية تعصف بي ، إلاّ إن وحيداً راح يجرني إلى أن بلغ بي غرفة نومي فدفعني إلى داخل الغرفة وأوصد عليّ الباب .

وثرت وقـــد أدركت أنني سجينة في غرفتي ، ورحت أضرب الباب بكلتا يدي واصرخ: « افتح الباب أيها النذل . افتح الباب .. افتح الباب أيها المجرم السافل الحقير » .

ودوى صوت صراخي في ارجاء القصر . ووقع في أذني امرأة عمي فأسرعت إلى نجدتي ، وأقبلت محاولةً فتح الباب . إلا ان وحيداً اعترض سبيلها وهدر : اتركيها ... لا تفتحي الباب . يجب أن ألقي عليها درساً في المحافظة على الكرامة والشرف الأثيل .

غير ان أمه لم تأبه له ، فدفعته عنها ووثبت إلى البـــاب تفتحه ...

وفتحت لي ذراعيها متمتمة : سلوى ا. ما بك ياحبيبتي ؟

وارتميت بين ذراعيها وأنا اجهش بالبكاء ...

وضمتني امرأة عمي إلى صدرها وهي تتمتم : ماذا حدث يا سلوى ؟ ما بك يا حبيبتي ؟

وإذا بوحيد ينتصب أمامنا هادراً :

- : انهـا على علاقة أثيمة بالخادم الحقير فؤاد العاصي . لقد لوثت سمعتنا بالوحول ومرغت كرامتنا . مجرمة شريرة ..

وصرخت به أمه : إصمت أيها الوقح . إن سلوى لأبعد وأعمق شرفاً منك .. اخرج من هنا . اخرج .

ورمقني وحيد بنظرة غضب وحقد قاصمة ..

وأدار ظهره وخرج من غرفتي وهو يتمتم بضع كلمـــات جارحة .

وأطل أبي ، وقد وصل إليه صوت صراخي ، وقـــال ، وهو يشاهد امرأة عمي تحتضنني :

- : ما بك يا سلوى ؟. ماذا حدث يا ابنتي ؟.

وتولت امرأة عمي الجواب :

- : ليس ثمة مـــا يقلق الخاطر يا أبا سلوى . يبدو ان سلوى اختلفت مـــع خطيبها .. هذه حال المحبين ، انهم أبداً على خصام واختلاف .

وابتسم والدي .. واقترب مني يمسك بيدي هامساً :

-: رويدك يا ابنتي . إن وحيداً يحبك، وهو طيب القلب

وإن يكن سريع الغضب يثور لأتفه الأسباب . لا تغضبي ولا تحزني ، انا سأتولّى مصالحتكما .

مسكين والدي ، لقد خيلّ إليه انني حزنت وبكيت لأن وحيداً غاضب عليّ ! كان يخيل لوالدي ، كما كان يخيل للجميع في هذا القصر ، انني أبادل وحيد الحب والهيام ، ولم يكن ليخطر في بال أحد انني أحب فؤاداً خادمنا الفقير .

وراح والدي يطيّب خـــاطري ، وراحت امرأة عمي تواسيني وتغمرني بعطفها وبحنانها .. وأمسكت بيدي هامسة : تعالي معي . سنذهب لزيارة بعض الصديقات .

كانت امرأة عمي تريد ان تخرج بي من القصر لتروّح عن نفسي وتبتعد بي عن الأسى والحزن والدموع ، أما أنا فكنت أريد ان ألحق بفؤاد ، كنت أريد أن أبتعد عن ذلك القصر ، وعن كل من يقيم فيه .

وأبيت أن أرافق امرأة عمي وقلت : انني متعبة يا امرأة عمي . أريد أن أرتاح قليلاً . أرجوك ، دعيني وحدي .

وضمتني امرأة عمي إلى صدرها برفق وحنان ، وقبلتني وهمست : كما تريدين يا حبيبتي .

وخرجت ... وجلست وحدي أفكر : يجب ان اخرج من هذا القصر الذي شاهدت فيه مصرع قلبي والذي لقيت بين

جدرانه الكوارث والمصائب والويلات . اجل ، يجب ان أخرج من هنا . ولكن إلى أين ؟..

إلى أين ؟.

إلى حيث ألتقي بحبيبي فؤاد ...

ولكن أين ألتقي به ؟. وأين هو الآن ؟

هل أستطيع ان أجده إذا بحثت عنه ؟. هل أستطيع ان أقف منه على أثر .

ونهضت أرتدي أجمل واروع ما عندي من الثياب واخرج من غرفتي ، ثم اتسلل من القصر ، وأسير كأنني على موعد مع حبيبي .

كنت على يقين من انني سألتقي بفؤاد . كانت هنـــاك حماسة غريبة تدفعني إلى المسير في الطريق إلى الغـــابة ، إلى تلك الصخرة العالية التي كنت أقف فوقها مع فؤاد .

ما هي تلك الحماسة الغريبة ؟ ما هي تلك القوة الهـــائلة المجهولة التي كانت تدفعني إلى المسير في ذلك الطريق ؟..

لست أدري .. لست أدري .

في الحياة اسرار هائلة رهيبة لم يستطع ولن يستطيع الإنسان اكتشاف حقيقتها وسبر غورها ، الإنســان الذي استطاع أن يكتشف اسرار العـــلم لن يستطيع ان يكتشف اسرار

الأرواح ، اسرار العاطفة ، اسرار الشعور ، اسرار الحياة والموت وما وراء وقبل وبعد الحياة والموت .

لماذا كنت أسير نحو الغابة ؟. وما هي تلك القوة التي كانت تقودني في ذلك الطريق ؟.

أترى روح فؤاد كانت تقود روحي ؟. من يدري .

وتابعت سيري وأنا تائهة جذلى لا أفكر بشيء ولا أعي شيئاً .

وتوغلت في الغابة ، وبدأت اقترب من الصخرة .

وفجأة دوى الصوت البعيد في اذني : « يا سلوى !.. » .

كان الصوت ، صوت فؤاد .. فؤاد هنا اذن . انه هنا ينتظرني . فكأنه كان على يقين من أنني قادمة إليه .

وأخذت أعدو ..

واقتربت من الصخرة فشاهدت فؤاداً يقف على تلك الصخرة العالية ، يحدق بالأفق البعيد وينادي : « ياسلوى!» .

ووثبت إليه ، ففتح لي ذراعيه .. وإذا بي ارتمي بين ذراعيه المفتوحتين وأجهش بالبكاء .

وضمني فؤاد إلى صدره بقوة وجنون وكأنه يخشى أن أفلت منه وأهرب .

والتصقت به ودفنت رأسي في صدره فغرز أصابعه في شعري وهمس : سلوى !. هكذا سنظل .

وهمستُ : هكذا إلى الأبد ..

– : أجل يا سلواي ، الى الأبد . هكذا سنظل حتى بعد الموت ، لن يستطيع الموت ، الذي يفرق بين الأجساد أن يفرق بين روحينا . نحن في حبنا الخالد أقوى من الموت .

قلت ، وأنا أمسح دموعي :

– : لن نفترق يا فؤاد، سأهرب معك الى أقاصي الأرض.

فأمسك بيدي وقال : « تعالي .. تعالي معي يا سلوى ، سندلف الى بيروت ، ومن بيروت نسافر الى ما وراء البحار، سننضم الى مواكب المهاجرين اللبنانيين الضاربين في مشارق الأرض ومغاربها ، سنحيا معاً مدى الحياة ، ونعيش معاً مدى الموت » .

فارتسمت على شفتي ابتسامة زاهية ، وشددت يده وهمست : تعالَ .

وقبل أن نسير خطوة واحدة تعالى صوت على مقربة منا أثار هلعي واضطرابي .

كان الصوت هو صوت ابن عمي وحيد .

وصرخ وحيد بي : يا مجرمة !..

والتفتُّ الى وحيد فشاهدته واقفاً على بعد أمتار قليلة وهو يصوّب بندقية الصيد الينا ، فاشتد هلعي وقد أدركت أن وحيداً سيطلق علينا النار . أنا لم أخف من الموت ، لم أخف على نفسي . كان خوفي على فؤاد .

ووجم فؤاد ، وهو يشاهد وحيداً يشهر البندقية وصمت. لم ينبس بحرف .

وصرختُ : وحيد !.. لا تطلق النار .

قلت هذا ، ووقفت بين فؤاد وبندقية وحيد . كنت أريد أن أحمي فؤاداً بصدري ، كنت أريد أن أموت أنا ويحيا فؤاد ، الاّ أن فؤاداً أبى أن أفتديه ، فدفعني عنه ، وحاول الوثوب الى وحيد ، الاّ أن وحيداً لم يترك له الفرصة للوثوب ..

ودوى الطلق ..

واذا بفؤاد يتهاوى .. ويقع على صدري ..

ثم ، ثم يجري فوق الصخرة مضرجاً بدمه .

الطلق أصابه في القلب .. لقد أصابه وحيدٌ الهدف، وهو الصياد الماهر الذي يحسن الإصابة .

وارتميت فوق فؤاد والهلع يهزني هزاً . ورحت أولول : « فؤاد !. فؤاد !. فؤاد !.. » .

ورفع فؤاد نظره اليّ وهمس : « سلوى !.. أنا ما زلت عند وعدي .. سنحيا معاً .. هناك .. هناك .. هناك .. ما وراء الأفق البعيد .. سأنتظرك يا سلواي .. يا حبيبتي ..

وألوى عنقه .. وظلت عيناه عالقتين في عيني ..

لقد مات فؤاد .. »

٨

كانت الدموع تغمر عيني سيدة القصر عندما وصلت في سرد حوادث قصتها الى مصرع فؤاد .. وكانت ترتجف من الخوف والهلع وكأنها تشاهد مصرع حبيبها أمام عينيها ..

وصمتت برهة .. ثم مسحت دموعها المنسابة على خدها بغزارة وتابعت حديثها :

« أنا ما زلت أرى عيني فؤاد العالقتين في ما وراء الأزل» مازلت أشاهد وجهه الصامت وشفتيه المنفرجتين عن ابتسامة صفراء . ما زلت حتى الآن أشاهده أمام عيني ، وما زالت كلماته الأخيرة ترن في مسمعي .. لن تمحو الأيام من عيني صورة فؤاد ساعة الموت ، ولن تستطيع الليالي أن تسد أذني عن صوته الشجي الحبيب » .

وعادت الى الصمت تعتصم به .. وعادت الدموع تتدحرج على وجنتيها بغزارة .

وحاولت أن أبتعد بها عن تلك الذكرى المؤلمة الرهيبة .

— : وبعد ذلك ، ماذا حدث ؟..

— : « انتشر النبأ في المزرعة وفي القرى المجاورة : « وحيد عبود صرع عشيق ابنة عمه الخادم فؤاد العاصي » .

وكما يحصل عادة بعد جريمة قتل حصل يومذاك . جاء رجال الأمن ، والطبيب الشرعي ورجال القضاء فاعتقلوا وحيداً ودفنوا جثة فؤاد .

أما أنا فقد سجنوني في غرفتي في هذا القصر ، ولم أكن لأبه بالسجن ، لم أكن لأهتم بشيء بعد أن فقدت فؤاداً .. سيّان لديّ أكنت سجينة أم كنت طليقة الجناح .

وأقمت في غرفتي وأنا على ألم وأسى ودمع وعذاب .

ولم أكن لأشاهد أحداً إلاّ امرأة عمي وحدها ظلت تعطف علي وترثي لحالي . أما والدي فكانت المصيبة قد هدّت قواه وعصفت به فأصيب بالشلل .

ومرت الحوادث بعد مصرع فؤاد بسرعة هائلة ، فقد مات والدي بعد سنة واحدة .. أنا كنت السبب في موته . كان من الممكن أن يعيش والدي سنين طويلة لو لم تدهمه المصيبة وتحل به ، على يدي أنا ، الفضيحة .

وبعد سنوات قليلة أيضاً ماتت امرأة عمي وكان عمي قد سبقها إلى دار الخلود .

وسألتها :

ـ : ووحيد ابن عمك ؟.

ـ : ووحيد أقام في السجن ثلاث سنوات فقط .. تصور .. حياة فؤاد تساوي ثلاث سنوات سجن .. لقد اعتبر القضاء جريمة وحيد دفاعاً عن الشرف .. لا سيما ولم يكن ثمة ادعاء شخصي .. لم يكن هناك من يطالب بدم فؤاد . فلا أم له ولا أب ولا اخوان يبكونه .. دموعي أنا وحدي كانت تذرف على فؤاد ..

وبعد أن خرج وحيد من السجن تزوج من حبيبته الفنانة الفرنسية وسافر معها إلى فرنسا .. ولم أسمع عنه شيئاً .

وها أنا وحدي .. أعيش في هذا القصر على الذكريات ، الذكريات الدامية الدامعة المؤلمة الرهيبة .. انني اعيش على أمل اللقاء ، لقاء فؤاد .. لقد قال لي ساعة لفظ انفاسه أنه ينتظرني هناك ما وراء الأفق البعيد.. وأملي أن لا يطول انتظار فؤاد .. كم أود أن ارحل الآن ، في هذه الساعة عن هذه الأرض الفانية ، إلى حيث ينتظرني حبيبي . ومن الآن حتى يحين موعد اللقاء بفؤاد سأظل أناديه عند كل غروب ، وستظل هذه الوديان والتلال والجبال والربى والوهاد تردد في اذن السماء الصدى البعيد » .

* * *

كانت النجوم قد بدأت تتلاشى من كبد السماء أمام أنوار الفجر البعيد ، والنسائم ، نسائم الفجر ، العطرة تهب على وجوهنا حاملة إلينا عبير الصنوبر والسنديان والشربين ، عندما أنهت سلوى عبود سرد مأساتها .

وساد الصمت بيننا برهة ، والتفت إليها فإذا بالدموع الغزيرة تتدحرج على وجنتيها .. وإذا بشفتيها ترتجفان وتهمسان : « فؤاد !. يا حبيبي .. متى .. متى تأخذني إليك ؟..

ـ تمت ـ

الصدى البعيد

**

انها قصة النفس البشرية في آمالها وأحلامها وعذابها ودموعها وملذاتها وسعادتها .

الصدى البعيد هي قصة الصدى الذي يدوي في أعماق ارواحنا فيشدنا إلى الماضي ليبعث فينا الذكريات الآفلة البعيدة ، ويعيد الينا كل ما مر بنا من امان واحلام وهوى وحب وسعادة وعذاب .

في هذه القصة يروي الاديب المعروف بيار روفايل قصة فتاة عصفت بها رياح الذكريات فأعادت الى قلبها ذكريات الماضي البعيد ، ومع الذكريات أعادت إلى ذلك القلب الحنين وإلى عينيها الدموع .

ويبلغ بيار روفايل في قصة الصدى البعيد أروع ما كتب في الادب القصصي الرفيع .

تطلب من مكتبة المعارف بيروت
ص.ب: ١٧٦١
الثمن : ٥٠٠ ق.ل.